



عضو أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة

النصية في خطبة الحجاج ولاية العراق

دكتور

محمد عبد الرحمن عطا الله

كلية الآداب - جامعة الطائف

أغسطس ٢٠١١م

العدد السابع والأربعون (٤٧)

مجلة الثقافة والتنمية

يمثل النص أثراً للغة وشكلاً من أشكالها المرتبط ببعض استخدامات الكلام ، فينبغي لذلك أن يكون مفهومه الأساسي أنه وسيلة لنقل الأفكار بين المخاطبين ، فالهدف من دراسة النص بوصفه مظهراً من مظاهر استعمال اللغة ، هو تحسين الاتصال بين البشر . (١) على حد قول د. مصطفى ناصف : " المبرر الأكبر للدراسات اللغوية هو تحسين الاتصال " . (٢)

إن تعريفات النص تعددت وتباينت بين علماء لغة النص ، وفقاً لتعدد مشاربهم ومذاهبهم الفكرية والفلسفية التي ينتمون إليها " إلا أن هناك قاسماً مشتركاً بين جل هذه التعريفات وهو التأكيد على خاصية ترابط النص ، وضرورة النظر إليه على أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء ، وليس سلسلة من التتابعات الجمالية " (٣) . وقد عرف درسلي ، ودي بوجراند النص بأنه " فعل اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير ، هي الربط والتماسك والقصدية والمقبولية والإخبارية والموقفية والتناس " (٤)

وقد صاغ دي بوجراند هذه المعايير السبعة بشكل مختلف ، ولكنها لا تخرج عن مضمون الصياغة السابقة ، وهذه المعايير هي :

- ١- السبك
- ٢- الالتحام
- ٣- القصد
- ٤- القبول
- ٥- رعاية الموقف
- ٦- التناس
- ٧- الإعلامية (٥)

وهذه الدراسة تحاول تطبيق المعايير السبعة في خطبة الحجاج ولاية العراق . وتم اختيار هذه الخطبة موضوعاً للدراسة ، لطواعتها لتطبيق المعايير السبعة عليها ، وكذلك لإثبات أن النصوص التراثية تصلح لأن يطبق عليها أحدث المناهج سواء في مجال اللسانيات أم في مجال النقد وغيرهما من المجالات .

وليس معنى ذلك أننا إذا اخترنا نصوصاً أخرى ، لم تتوافر فيها المعايير السبعة تنتفي عنها صفة النصية ، فأكثر العلاقات النصية المذكورة شيوعاً هي البناء الاتصالي والربط النحوي والتماسك الدلالي والقصدية ، غير أن درسلر ، وبوجراند لا يعنيان ضرورة تحقق هذه المعايير السبعة في كل نص ، وإنما يتحقق الاكتمال النصي بوجودها ، وأحياناً تتشكل نصوص بأقل قدر منها " (٦) ووصولاً إلى الاكتمال النصي في خطبة الحجاج ولاية العراق . نقوم بدراسة هذه المعايير السبعة التي تحقق للخطبة نصيتها على النحو الآتي :

١. الموقفية / المقامية

معيار الموقفية أو المقامية يرتبط " بالموقف أو المقام الذي أنشئ من أجله النص . (٧) والموقفية أيضاً " تتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطاً بموقف سائد يمكن استرجاعه " (٨)

والنصوص " متضمنة دائماً في مواقف تواصل يمكن حدها ؛ فثمة عوامل موقفية تؤثر بشكل جوهري في تشكيل بنية النص " . (٩)

إذا توجد علاقة بين النص والموقف ، ولكن لمعرفة الموقف لابد من التغذية الراجعة ، فمصطلح الموقفية يمثل " تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص ، وبين موقف لواقعة ما ، سواء أكان موقفاً حاضراً ، أم قابلاً للاسترجاع . ونادراً ما يتحقق مقام سياقي معين بدون حدوث التوسط ، أي مدى تغذية المرء بمعتقداته وأهدافه الخاصة للنموذج الذي يقيمه للموقف الاتصالي الحالي ، وتتم تغذية النموذج بالقرائن المتيسرة جنباً إلى جنب مع توقعاتنا ، ومعرفتنا السابقة بشأن كيفية تنظيم العالم الواقعي " . (١٠)

فثمة عالمان : عالم النص وعالم الواقع ، والعلاقة بينهما ليست علاقة انفصال ، بل هناك تفاعل دينامي بينهما ، إلا أن المساحة بين هذين العالمين تختلف من نص لآخر ، فلجوء المؤلف إلى رصد الموقف تحدده مجموعة من العوامل السياقية الخاصة بالمؤلف والمتلقي والعلاقة الاجتماعية بينهما والظروف الاجتماعية المحيطة بهما ، بما يتفاعل مع لغة النص . (١١)

بناء على ما سبق ، لا يمكن فصل النص عن سياقه " فإن من سمات النصية أنها تسمح للخطاب أن يتماسك ، ليس فقط بين أجزائه بعضها ببعض ، ولكن يتماسك

أيضاً مع سياق الموقف الخاص به ، والنص هو اللغة الضعالة في سياق الموقف " . (١٢)
 إن التفاعل المستمر بين النص وسياقه يؤدي بلا شك إلى عملية فهم النص ،
 التي تحتاج إلى عملية استنتاج ؛ لأن محلل الخطاب شأنه في ذلك شأن المخاطب . لا
 يملك طريقة مباشرة للوصول إلى المعنى المقصود من طرف المتكلم ، فهو في الغالب
 يحتاج إلى عملية " الاستنتاج التي تبنى على المعلومات الاجتماعية والثقافية ، وهي
 استنتاجات يفرضها المقام لا المنطق " . (١٣)

ويرى هاليداي ورقية حسن أن لكل نص نصاً آخر مصاحباً له هو السياق ،
 وتشتمل فكرة ما يصاحب النص على العوامل اللغوية : نغمة الصوت ، وإيقاع الكلام ،
 وحركة العين ، وإيماءات الجسد ، هذا بالإضافة إلى وجود السياق المصاحب ، أو سياق
 الموقف ، بعناصره الثلاثة التي تسهم في تفسير النص وهي :

أ . حقل الخطاب

ب . أدوار الخطاب

ج . لغة الخطاب

أ . حقل الخطاب أو مجال الخطاب field of discourse

ويشير إلى طبيعة الحدث الذي ينطلق منه الخطاب أو طبيعة النشاط
 الاجتماعي المتصل بالكلام ، ويتلاقى حوله المشاركون . وهو ما يوازي مفهوم المناسبة في
 البلاغة العربية .

ب . أدوار الخطاب : temots of discourse

ويشير إلى طبيعة العلاقة بين المشاركين في الخطاب وحالتهم النفسية وأدوارهم
 الاجتماعية ، والعلاقات الدائمة والمؤقتة بينهم ، وأدوار الخطاب التي يشغلونها في الحوار .
 فهذا العنصر يبحث عن العلاقات بين المشاركين في الخطاب ؛ أو الحدث
 التواصل من متكلم وسماع ومخاطب ، وتأثير ذلك في الكلام . أو النصوص ، وكيف أن
 الكلام أو النص يكشف عن العلاقة بين الأشخاص الذين يشتمل عليهم الخطاب من
 حيث المركز الاجتماعي والسيطرة والمودة والألفة ، ودرجة البعد أو القرب والصداقة
 والمحبة والتعالي الخ .

ج. لغة الخطاب : mode of discourse

وتعنى اللغة التعبيرية المستخدمة في الخطاب ، هل هي رسمية أو غير رسمية ،

ديالوج ، مونولوج ،

مكتوبة أو منطوقة ، قصصية أو غير قصصية ... الخ ، وتشير تلك الملامح إلى

الدور الذي يمكن أن

تؤديه اللغة في الاتصال من إقناع أو تفسير أو تعلم أو نهى .. الخ . (١٤)

من خلال الاستقصاء السابق يمكن أن نلاحظ عوامل سياقية تؤدي إلى ظهور

النص ، وعوامل تصاحبه وقت حدوثه ، وأخرى تعقبه ، ومن ثم فهناك محاور أساسية

للسياق هي :

السياق السابق pre- context

السياق المصاحب context with

السياق اللاحق post - context

ويشير السياق السابق إلى مفردات الموقف الاجتماعي التي تمخض عنها النص ،

والجوانب الثقافية والأيدلوجية لأطراف الخطاب . ويعبر " السياق المصاحب " عن البيئة

اللفظية للنص ، أو الأداء الصوتي المصاحب له من نبر وتنغيم . كما يعبر عن الأداء

السيميوولوجي المصاحب من إيماءات وحركات للجسد . وفي النص المكتوب يمكن تحديد

عناصره من خلال أساليب لغوية أخرى مثل : علامات الترقيم والجمل الاعتراضية .

وأساليب السجع والجناس الدالة على وجود أداء صوتي خاص للنص " أما السياق

اللاحق " فيدل على ما أدى له النص من تغيير في النواحي الاجتماعية والأيدلوجية ،

مما انعكس أثره على النصوص التالية له ، أو تصرفات الشخص المتصلة به . (١٥)

ونقف على هذه المحاور الثلاثة في خطبة الحجاج

أولاً السياق السابق

١. سياق الموقف

وسياق الموقف هو البيئة غير اللغوية . ويشير إلى الموقف بعناصره : المتكلم / المبدع

والمستمع / القارئ ، والعلاقة بينهما ، وزمان النص ، والظروف الاجتماعية والسياسية

المرتبطة به :

(١٦) ويرتبط سياق الموقف بمحورين مهمين هما :

حقل الخطاب / مجال الخطاب ، وأدوار الخطاب

١ . حقل الخطاب / مجال الخطاب

وهو كما قلنا من قبل . مرتبط بالحدث الذي ينطلق منه الخطاب ، أو طبيعة النشاط الاجتماعي المتصل به

والخطبة التي بين أيدينا هي خطبة الحجاج حين ولى العراق سنة ٧٥ هـ ، من قبل عبد الملك بن مروان ، وسبق ولاية الحجاج في العراق ظروف سياسية واجتماعية معينة ، فقد كانت الشيعة التي استوطنت الكوفة مصدر فتن وقلق في عهد معاوية ، ولما مات معاوية ، وولى الخلافة ابنه يزيد ، راسل الشيعة الحسين بن عليّ ، واستقدموه كي يبايعوه بالخلافة .

لكن عبد الله بن زياد والى الكوفة آنذاك تتبعهم بقسوة وبدد شملهم ، ولما وصل الحسين لم يجد في انتظاره أحداً ، وانتهت الأحداث بمقتله وأكثر أهله في كربلاء سنة ٦١ هـ .

تحرك الشيعة إلى الكوفة سنة ٦٥ هـ أول ولاية عبد الملك بن مروان واجتمعت كلمتهم على أنهم كانوا السبب في مقتل شهداء كربلاء ، ولذلك عليهم أن يتوبوا من هذا الإثم ، ويطلبوا التكفير بالانتقام لهؤلاء الشهداء ، فسموا أنفسهم التوابين ، وجعلوا قيادتهم لسليمان بن صرد الخزاعي ، وكونوا جيشاً من بينهم ، ودار بين الجيشين قتال شديد انتهى بمقتل سليمان ، وهزيمة التوابين ، فعاد من بقى منهم إلى الكوفة ، وهم أشد سخطاً على الأمويين ، وأكثر رغبة في الانتقام منهم .

لكن الشيعة كانوا يفتقدون شخصية القائد القادر على جمع الصفوف ، ووضع خطة لذلك الانتقام ، وسرعان ما ظهر المختار بن عبيد الله الثقفي فأعلن أنه يتحدث باسم إمام الشيعة محمد بن علي بن أبي طالب الملقب بابن الحنفية ، وكثر أنصاره ، فقدم عبيد الله بن زياد من الشام إلى العراق لحرب المختار وأنصاره .

وتوالت المواقف بين جيش المختار ، وجيش عبد الله بن زياد إلى أن كان النصر الحاسم للمختار ، ومقتل ابن زياد سنة ٦٧ هـ ، عند نهر الخازر ، لكن الزبيريين وجهوا جيشاً كبيراً ، قاده مصعب بن الزبير فاستطاع مصعب وجيشه تبديد جماعة المختار ومقتله سنة ٦٧ هـ (١٧)

من كل ما مضى يتضح أن الكوفة كانت موئل الشيعة في هذا العصر، وأن سادتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكونون بغضاً لبنى أمية وحكمهم . (١٨)

وإن كانت الكوفة شغلت بالخصومات الشيعية ، فإن البصرة لم تشغل بهذه الخصومات ، لكن كثربها الخوارج ، غير أن زياد بن أبيه أمعن في الضرب على أيديهم . (١٩)

إن هذه الظروف السياسية والاجتماعية والبيئية مثلت مجال الخطاب ، ومن ثم تعالت نبرة الأنا لدى المتكلم / الحجاج ، ووردت عبارات التهديد والوعيد قوية قاسية مناسبة للبغض الشديد لبنى أمية وحكمهم من قبل المستمع / المخاطب .

ومن هنا كان هناك تفاعل شديد بين النص بكل عناصره اللغوية ، وبين مجال سياقه الخارجي ، فقدم النص لنا صورة لأهل العراق أنهم أهل شقاق وفتن ، وقدم لنا أيضاً ما ينبغي أن يحكم به هؤلاء العراقيون . (ب) . أدوار الخطاب وتشير أدوار الخطاب إلى طبيعة المشاركين فيه ، وحالتهم والعلاقات الدائمة والمؤقتة بينهم . والخطاب الذي بين أيدينا تطلب وجود المخاطب / المرسل ، والمتلقي / المرسل إليه ، فكل خطبة لابد لها من مرسل ومستقبل .

المرسل / الحجاج / الحاكم ، والمستقبل / أهل العراق / المحكومون ، والعلاقة بين المتكلم والمتلقي علاقة قائمة على البغض الشديد . كما مربنا في حقل الخطاب . ومن هنا عكست هذه العلاقة لغة اتسمت بالتهديد من قبل المخاطب / الحاكم ، موجهه إلى المخاطبين / المحكومين الذين يبغضون كل من ينتمي إلى الدولة الأموية .

إذاً هذا الخطاب لم يحقق التطابق في أدوار كل من المخاطب والمخاطب ، لأن العلاقة بينهما علاقة تنافر ، وليست انسجاماً ، ولذا اكتسبت الخطبة أبعاداً رسمية متعددة ، واختفت منها المشاعر والعواطف ، وأظهرت الخطيب ، صلب المراس ، قوى الشكيمة ، رابط الجأش ، لا تعجزه وسيلة في الحفاظ على الأمن ، واستئصال شأفة كل من تسول له نفسه الخروج على نظام الدولة .

٢. السياق الثقافي

يولى مالينو فسكى اهتماماً واضحاً للخلفية الثقافية للنص ، لأن الكشف عن هذه الجوانب الثقافية يمنح النص قيمة خاصة من ناحية ، كما تساعد على فهمه ، وتأويله من ناحية أخرى . (٢٠)

ويدرر السلق الثقافى من خلال محورىن هما : طبعىة لغة الخطاب ، ونوع الخطاب .

أ . طبعىة لغة الخطاب

تعنى طبعىة لغة الخطاب : نوع هذه اللغة التى تعد أداة لسانىة مهمة للتعبىر عن أفكار الكاتب ومعتقداته ، ومن ثم يمكن تملىز الأنواع الأداتىة للغة : رسمىة / غير رسمىة ، منطوقة / مكتوبة .

والخطبة وصلت إلينا مكتوبة ، لكن لغتها فى حقىقة الأمر . ساعة إلقائها . شفاهىة . وهناك فرق بىن اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة سواء على مستوى الموقف الاتصالى ، أم على مستوى السمات الأسلوبىة واللغوىة لكل منهما .

" إن الكلمة فى موطنها الشفاهى تمثل جزءاً من حاضر ووجودى حقىقى يضم أشخاصاً حقىقىن فى لحظة زمنىة بعىنها فى موقف حقىقى يتضمن دائماً ما يتجاوز مجرد الكلمات . أما الكلمة المكتوبة فى النص المكتوب تقف بذاتها ، وكاتبها يكون فى أثناء إنتاجه منفرداً " (٢١) وإن كان هناك تنافر بىن المخاطب والمخاطب فى أدوار الخطاب ، فإن اللغة الشفهىة وحدت بىن المتكلم والمتلقى والزمان والمكان ، فالخطبة ألقىت مشافهة من مرسل إلى مرسل إليه فى زمان ومكان محددين ، فالتنافر الذى فهم ضمناً من خلال سلق الموقف وأدوار الخطاب يتحول عبر نوع لغة الخطبة إلى انسجام ظاهرى ، أنبئت عنه بنية السطح .

إن بنية السطح تحاول من خلال لغة الخطبة أن تحدث انسجاماً مع بنية العمق ، فالخطيب يهدف من خطبته أن يتحول المجتمع العراقى من العصيان إلى الخضوع ، ومن ثم يستقر الأمر .

ب . نوع الخطاب

ىشىر النوع إلى أجناس النصوص الأدبىة مثل : الرواية ، القصة ، الرسالة .. الخ ، ويرتبط بأغراض المبدع ومقاصده ، ومع تعدد المقاصد تتعدد الأنواع ، ولا يقتصر تحديد نوع النص على البنىة الشكلىة فقط ، إذ يلزم إلى جانب ذلك تحديد موضوعات النوع والمفردات المستخدمة فى النص ، وكفىة توظیفها . (٢٢)

والنص الذى بىن أیدىنا ینتمى إلى فن الخطابة فى عصر بنى أمىة ، والخطابة كانت مزدهرة فى هذا العصر ، وقد أسهمت عوامل متعددة فى ازدهارها . إذ كانت لا تزال

للعرب سلائقهم اللغوية ، ولم تقسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان ، وجودة الإفصاح بحيث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة ، والرونق البديع .
وهناك عوامل سياسية أدت إلى ازدهار الخطابة ، أهمها المعارضة الحادة للدولة الأموية ، ولا بد أن يكون ولادة هذه الدولة من أمثال الحجاج على درجة عالية من الفصاحة والبيان . (٢٣)

إذاً ، فالمخاطب كان له دور في تحديد لغة النص ، فهو يتمتع بقدر فائقة من الفصاحة والبيان ، ومن هنا جاءت لغة الخطبة جزلة الألفاظ ، محكمة العبارة ، تعبر عن فصاحة قائلها ، وقوة بيانه .

وبجانب فصاحة الخطبة وروعة بيانها ، واعتمادها على صور بيانية طريفة ، فقد تأثرت بمجموعة من النصوص ، وتعالقت معها ، فرواحت الخطبة بين القرآن والشعر والمثل ، وبعض ما ورد في الخطب السابقة عليها . " فأي نص يتأثر صاحبه بالخبرات السابقة لكل النصوص التي تنتمي لنفس النوع ، وبالنصوص والخطابات التي هي من خارج النوع . وهكذا فإن تقاليد نوع ما ، يعاد إنتاجها من خلال استمرار استخدامها عبر أنواع أخرى " . (٢٤)

من خلال التعالق النصي بين الخطبة والنصوص السابقة عليها يتضح أن المتلقي يعد مشاركاً للمخاطب في إنتاجية النص ، فلعلم المخاطب المسبق بثقافة المخاطب ، ومعرفته بالأنواع الأدبية ، عرض الخطيب على سامعه مجموعة من النصوص ، جاءت شديد التلاحم بالخطبة شكلاً ومضموناً .

ثانياً : السياق المصاحب :

يشتمل هذا السياق على أشياء كثيرة لغوية وغير لغوية في البيئة العامة التي يظهر فيها النص . وعناصر السياق المصاحب في الحديث الشفاهي واضحة وبارزة لكل من المتكلم والسامع ، وتنحصر في استخدام بعض الوسائل اللغوية مثل النبر ، والتنغيم ، وبعض الوسائل السيميولوجية مثل : إيماءات الوجه وحركات الجسد . فنطق كلمة بتنغيم مختلف في كل مرة ينتقل بها من مجال دلالي إلى مجال دلالي آخر . ونبر بعض الكلمات يوحي إلى ارتباطها بفكرة مهمة يريد المتكلم بثها للمستمع كما يؤكد

استخدام إيماءات الجسد وحركاته على اكتمال الأبعاد السيمانطيقية للخطاب ،
ووضوحها للمستمع . (٢٥)

هذه الخطبة صاحبها بعض الأنساق غير اللغوية التي نصَّ عليها الراوي
صراحة ، وهناك أنساق غير لغوية أخرى يمكن أن تفهم ضمناً .
والأنساق غير اللغوية التي نصَّ عليها الراوي نتعرفها من النص الآتي :

" حدث عبد الملك بن عمر الليثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج
الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى أت ، فقال : هذا الحجاج قد قدم
أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ،
متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ،
فقال الناس بعضهم لبعض : قبَّح الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق !
حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي : ألا أحصيه لكم ؟ ، فقالوا : أمهل حتى ننظر ، فلما
رأى عيون الناس إليه ، حسر اللثام عن فيه ، ونهض ، فقال :

أنا ابنُ جَلَا وطلّاعُ الثُّنَايا متى أضعُ العِمَامَةَ تعرّفوني " . (٢٦)

في هذا النص مجموعة من الأنساق غير اللغوية ، كلها خاصة بالحجاج :
معتم . ملثم . متقلد السيف . القوس على منكبه . جالس ساعة على المنبر لا يتكلم .
هذا النسق غير اللغوي يحمل في طياته دلالة التهديد والوعيد ، ولذا كان
نسقاً ملائماً للنسق اللغوي ذي نبرة الأنا المتعالية ، والمضعم بالتهديد والوعيد .
وهذا النسق غير اللغوي انحراف عن المألوف ، فالحاكم في بداية حكمه يحاول
أن يتوّد إلى الرعية ، والخروج عن المألوف يشد الانتباه ويثير مشاعر المتلقي ، وهذه دلالة
أخرى لهذا النسق ، لأن المتكلم أودع خطبته دستوراً في الحكم ، ومن ثم فهو في حاجة
إلى مستمع يقظ غير غافل .

ومما لا ريب فيه أن هناك أنساقاً غير لغوية أخرى كان لها دلالتها لم يدلنا
عليها الراوي ، فربما يكون الحجاج قد ضغط على بعض المقاطع في أثناء خطبته ،
ونبرها ليحدث تأثيراً في المستمع .

وأيضاً فلا بد أن يكون للتنغيم أثر في الخطبة " فالتنغيم هو موسيقى الكلام ،
فالكلام لا يلقي بدرجة واحدة ، فتظهر موسيقى الكلام في صورة ارتفاعات وانخفاضات ،
وهذه بعينها التنويعات الصوتية ، ما يسمى بنغمات الكلام ، ولهذه النغمات مدى حيث
الارتفاع والانخفاض ، فهي تتغير من موقف ، ومن حالة نفسية إلى أخرى .

فإذا كان التنغيم منخفضاً سميت النغمة هابطة ، وإذا كان مرتفعاً سميت
النغمة صاعدة ، وإذا التزم التنغيم مستوى واحداً فالنغمة تكون مستوية ، والنغمة
الصاعدة مرتبطة بالسكته ، والنغمة الهابطة مرتبطة بالوقفة " . (٢٧)

ولابد أن يكون الحجاج استخدم السكتات والوقفات ، ومن هنا يكون التنغيم في
الخطبة قد تنوع بين الهبوط والصعود والاستواء ، مما يتبعه تنوع موسيقى يكون أشد
تأثيراً في السامع .

ومن الممكن أن يكون الحجاج قد استخدم أنساقاً غير لغوية أخرى ، فمن خلال
مقدمة الراوي ، يتضح أنه استخدم كل الوسائل التي يؤثر بها في الملتقى ، ويحقق
لخطبته النجاح .

ثالثاً : السياق اللاحق

يدل السياق اللاحق على ما أدى له النص من تغييرات اجتماعية وأيدلوجية . (٢٨) .
لقد ختم الحجاج خطبته بقوله : " وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطيائكم
، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً
تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه أنهبت ماله ، وهدمت منزله " . (٢٩)
وقد حاول الحجاج بكل وسيلة أن يحقق هذه الخطبة هدفها المرجو ، وأن يستتب
له الأمن ، ومن هنا نرى الخطبة تركز على قضية واحدة هي : من أطاع أجزلنا له
العطاء ، ومن عصا ، يقول له الحجاج " وإني لأحمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه
بمثله " . (٣٠)

ولذلك لا نرى الحجاج يتوانى في القضاء على ثورة ابن الأشعث ، فقد شاركت
الكوفة " في ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج ، وهي ليست ثورة شيعية ، وإنما هي ثورة أهل
السيادة والشرف في الكوفة على بني أمية . فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية ،
وكان سادة هذه البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم بني أمية لهم ، وأخذهم بالعنف

والقسوة ، وخاصة الحجاج ، وأتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة على الحجاج ، بل على الظلم كله ، من ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه كثير من الموالي والقرءاء ، ونازله الحجاج في وقائع كثيرة . أهمها وقعة دير الجماجم ، وانتصر عليه . وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل في هروبه ، حتى وصل إلى ملك الترك مستجيراً ، وقتل أخيراً " (٣١)

ومن هنا فقد حمل الحجاج الشر بحمله وحذاه بنعله ، وجزاه بمثله ، واستمر سياق الخطبة اللاحق ، حتى نهاية ولاية الحجاج ، فمنهجه الذي استنه في خطبته لم يحد عنه أبداً ، فقد كانت تلك الخطبة هي القانون الذي حكم به الحجاج العراق .

٢. المقصدية والمقبولية

يعد السبك في ظاهر النص ، والحبك في باطنه أكثر معيارين وضوحاً في معايير النصية وهما ، يوضحان كيفية تآلف العناصر المكونة للنص ، وإفادتها معنى ، غير أنهما يعجزان عن تزويدنا بحدود فصل مطلقة تميز بين النصوص وغير النصوص في الاتصال الواقعي . ففي وسع الناس استعمال نصوص تبدو لأسباب مختلفة ، غير مستكملة السبك والحبك . وهم يقومون بهذا فعلاً ، ولذا يتوجب علينا إدخال اتجاهات مستعملي النص ضمن معايير النصية . ولا غنى لأية تشكيلة لغوية يراد استغلالها في التفاعل الاتصالي ، عن توافر القصد بأن تكون نصاً وعن قبولها بهذا الاعتبار . وتنطوي مثل هذه الاتجاهات على شيء من الإغضاء على الاختلال في السبك والحبك ، ما دامت الطبيعة الغائية للاتصال قائمة ، وإن إنتاج النصوص واستقبالها يقومان بدور أحداث خطابية ذات صلة بخطة ما ، أو هدف ما . (٣٢)

ومن هنا يكون الأمر أكثر إلزاماً عندما نضطر إلى استعمال النصوص غير مكتملة السبك والحبك حينئذ يتوجب علينا إدخال اتجاهات مستعملي النص ضمن معايير النصية ؛ إذ النظر إليها مكمل لصفة النصية الناقصة في تلك النصوص . (٣٣)

إذاً هناك عناصر لا غنى عنها في تمثيل عملية إنتاج النص باعتبارها عملية تواصل ، أحد هذه العناصر هو توافر القصدية من قبل المرسل ، والمقبولية من قبل المتلقي ، وبذلك تُعد القصدية والمقبولية من المعايير التي تتحقق بها صفة النصية من منظور الجانب الاتصالي في تحليل الخطاب " . (٣٤)

وإن كانت نصية النص تتحقق بهذين المعيارين في النصوص غير مستكملة السبك والحبك ، فإنه كلما كان النص مسبوكاً ومحبوكاً ، أدى إلى زيادة كفاءة القصصية والمقبولية .

ويؤكد ذلك د. أشرف عبد البديع في أثناء حديثه عن المقبولية : " وقد نتج عن ذلك أن وضوح وجلاء هذا المعيار (المقبولية) ، يعتمد على وضوح المعايير السابقة عليه ، فكلما كان النص مسبوكاً ومحبوكاً ، أدى إلى حصول قصد المنتج ، الأمر الذي يؤدي إلى قبول المتلقي النص كلية وعدم رفضه " . (٣٥)

والقصصية تعنى رغبة مؤلف النص أن يقدم نصاً مسبوكاً ومحبوكاً . وفي معنى أوسع تشير القصصية إلى جميع الطرق التي يتخذها المؤلف لاستغلال نصه من أجل تحقيق مقاصده . (٣٦) ، ولذا تكون لمقصصية المخاطب أهمية كبيرة في تحقيق انسجام النص وتماسكه . (٣٧) .

والمقبولية بمعناها الواسع هي رغبة نشطة للمشاركة في الخطاب ، ويكون المؤلف عنصراً مؤثراً في تحديد مدى المقبولية ، فهو لا يضع استراتيجيات لنصه فقط ، ولكنه يتدخل في استراتيجيات التلقي . (٣٨)

إذاً ، فالنص شركة بين شريكين هما : المتكلم والمتلقي " فالمستمع يتعاون مع المتكلم في إعطاء معنى للنص ، والمعنى لا يكتمل فقط بواسطة المعنى الحر في الذي تنقله الكلمات ، بل يقوم المستمع بعمليات استنتاج المعنى الضمني " (٣٩) ويمكن دراسة هذين المعيارين في الخطبة على النحو الآتي :

أولاً : القصصية :

الخطبة بصفة عامة نص موجه إلى جمهور كبير من الناس يجمعهم زمان ومكان محددين ، ومن المفترض أن يكون الخطيب على علم بجمهوره ويظروفهم النفسية والاجتماعية المحيطة بهم فهذه العوامل لم تغب عن منتج النص حتى يحقق التواصل مع جمهوره ، ومن جانب آخر فالمتلقي شريك معه في إنتاج النص .

وهناك عوامل أخرى يضعها مبدع النص في حسابه ، أهمها المعايير الثقافية ، فالقصد إلى التواصل يتم في إطار أدبي ولغوي ، يتعارف عليه طرفا النص ، ويشكل الخروج عليه مغامرة قد تؤثر على نجاح النص . (٤٠) .

ومن هنا ندرس القصيدة من خلال المقاصد الظاهرة والمقاصد غير الظاهرة بالإضافة إلى أفعال الكلام .

أ . المقاصد الظاهرة .

وهي تضم المقاصد الاجتماعية والنفسية ، وقد تأثرت مقاصد الحجاج بالظروف الاجتماعية والنفسية لبيئة العراق ، وقد كشف الحجاج نفسه عن تلك الظروف في خطبته حيث يقول : " إني والله ي أهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساويء الأخلاق ، ما يقعق لي بالشنان " (٤١)

ويقول في موضع آخر : " فرماكم (أمير المؤمنين) بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، وأضجعتهم في مراتب الضلال ، وسننتم سنن الغي " (٤٢) ، وهذه خطبة موجهة من حاكم إلى محكوم ، وهي الخطبة الأولى في قوم يراهم أهل شقاق ونفاق ، ومساويء أخلاق ، ومصادر فتن وثورات . من هنا كان مقصده من خطبته القضاء على الفتن والخلافات ، واستقرار العراق حتى ينجح في حكم هذا البلد .

أما من الناحية النفسية ، فهناك تباعد نفسي بين طريفي الخطاب فالحجاج مبعوث من قبل بني أمية ، والعراقيون يكرهونهم ، والحجاج يعلم مسبقاً مدى بغضهم له . ولذلك اتصفت مقاصد الحجاج بصفة التعالي وعلو نبرة الأنا ، فكثرت ضمير الأنا / المتكلم في الخطبة كثرة لافتة ، مما يجعله يمثل سمة أسلوبية بارزة .

وكذلك أدت رغبة الحجاج في القضاء على الفتن واستقرار العراق إلى صبغ مقاصده بصبغة التهديد والوعيد التي كثرت في الخطبة ، وجاءت غالباً مصحوبة بأساليب القسم ، والأساليب الأخرى الدالة على التوكيد .

ويمكن أن نتبين ذلك من قوله : " ي أهل الكوفة ، أما والله إني لأحمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أينعت وحن قطاها ، وإني لصاحبها "

" أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأودعن لكل رجل منكم شغلا في جسده ... وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت منزله " . (٤٣)

وارتبطت مقاصد الحجاج أيضاً بالإعلاء من شأن أمير المؤمنين ، حتى يربط العراق بالشام مركز الخلافة ، فلا يكون ولاء العراقيين للحجاج وحده ، دون الخليفة .

فيتكرر أمير المؤمنين مرتين في الخطبة على حد قول الحجاج " وإن أمير المؤمنين - أطل الله بقاءه نشر كنانته بين يديه فعجم عيدانها . فوجدني أمراً عودا ، وأصلبها مكسراً فرماكم بي "

" وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة " . (٤٤)

وإن كان قصد منتج النص في الدرجة الأولى التواصل مع متلقيه ، فإنه بجانب هذا كان يهدف إلى مقصد آخر - كما اتضح لنا من قبل - هو القضاء على الفتن ، وإظهار العراقيين الولاء التام للدولة الأموية .

(ب) . المقاصد غير الظاهرة

ونعنى بها المقاصد الثقافية ، وإن كان الحجاج أظهر مقاصده الاجتماعية والنفسية ، فلا بأس أن تتجلى لديه المقاصد الثقافية ، فيظهر براعته الأدبية أمام جمهور المستمعين ، فهي جزء من إظهاره حاكماً قوياً أمام رعيته .

ولم يغب عن ذهن الحجاج مكانة الخطيب البار ومدى تأثيره على جمهوره . (٤٥) ، وكان هدف الحجاج من وراء هذه البراعة الأدبية التواصل والتأثير في جمهور لا يقلون عنه فصاحة وبلاغة .

أسهم قصد الحجاج في إظهار براعته الأدبية في اختياره الألفاظ القوية ، والتراكيب المتوازية ذات الرنين الموسيقي الأخاذ ، والصور البيانية الرائعة ، وهذا انعكاس لنفسية مبدع النص ؛ لأن " طبيعة التراكيب هي انعكاس خاص لنفسية المتكلم " . (٤٦) وإمعانا من الحجاج في إظهار براعته الأدبية ، نرى في خطبته انفتاحاً على التراث شعره ونثره فيبدو بجانب القرآن ، تناسلاً مع الشعر والمثل ، وبعض الخطب السابقة عليه ، مما جعل للخطبة قيمة أدبية عالية . وكان التناسل أضحى قصداً من مقاصد الحجاج ، ورغبة منه في إحياء تراثه ، والتمسك بجذوره العربية الأصيلة .

ج . الأفعال الكلامية

ترتبط الأفعال اللغوية بنية منتج النصوص وقصديته ، فيكون الفعل اللغوي

الكامل . حسب تصور أوستين . تأليفاً يجمع بين مقصدية منتج النص والفاعل اللغوي :
وقد قدم أوستين تصنيفاً للأفعال الكلامية ، وقسمها حسب قوتها الإنجازية إلى :

- ١ . أفعال الأحكام : وتتمثل في حكم يصدره قاضي المحكمة ، أو هيئة معينة .
 - ٢ . أفعال القرارات : وتتمثل في اتخاذ قرار معين ، أو ممارسة سلطة تشريعية ، أو قانونية كالإذن والطرء والحرمان والتعيين .
 - ٣ . أفعال التعهد : والغاية منها هو أن يلزم المتكلم نفسه بإنجاز فعل معين ... والأفعال المعبرة عنها : يعد . يضمن . يؤيد . يكفل .
 - ٤ . أفعال السلوك : وتعبّر عن رد فعل لسلوك ما ، والأفعال المعبرة عنها : يعتذر . يشكر . يواسى . يتحدى .
 - ٥ . أفعال الإيضاح : والهدف منها تبرير وجهة نظر معينة أو الإفصاح عن رأى ، وإثبات ذلك بالبراهين والحجج ، ومما يدل عليها الأفعال الآتية : أثبت . أنكر . لاحظ . أشك .
- أصوب (٤٧) ولنتأمل هذه الأفعال في الخطبة تبعاً لتقسيم أوستين .

١ . أفعال الأحكام

أفعال الأحكام قليلة في الخطبة ، ويمكن أن نتبينها من قول الحجاج في آخر خطبته : " وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة " (٤٨)

في هذه الفقرة نرى حكماً صادرين من أمير المؤمنين ، الأول : إعطاء كل مواطن أعطيته ، والثاني : توجيه العراقيين إلى محاربة العدو ، والحكم الأول ارتبط بالفعل الماضي ، وارتبط الثاني بفعل مضارع . وفعل الأحكام هنا لهما علاقة بنية منتج النص ومقصده ، فهما يعبران عن إذعانه لحكم أمير المؤمنين ، ومن أهم مقاصد النص ، خضوع المتلقين للدولة الأموية .

٢ . أفعال القرارات

حققت هذه الأفعال نسبة تردد عالية في الخطبة فمقاصد الخطيب تحتاج مجموعة من القرارات ، وكذلك كثرتها تتناسب مع الظروف الاجتماعية والنفسية لجمهور المستمعين من العراقيين .

يقول الحجاج : " يأهل الكوفة ، أما والله إنى لأحمل الشر بحمله ، وأحنوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإنى أرى رعوسا قد أينعت ، وحان قطافها ، وأنى لصاحبها " .

يقول في موضع آخر : " لألحونكم لحو العصا ولا أقرعنكم قرع المروة ، ولا أعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل " (٥٠)

تضمنت هذه البنيات اللغوية مجموعة من الأفعال ، غدت اللبنة الأساسية في تكوين الجمل والأساليب وقد دلت هذه الأفعال على زمن واحد ، زمن المضارع بدلالته على التجدد والاستمرار ، وجاء هذا الزمن متلبساً بمجموعة من أساليب التوكيد (القسم . إن . لام الابتداء . نون التوكيد . المفعول المطلق) حتى يزيل أي شك أو إنكار من نفس المتلقي في تنفيذ القرارات .

ومن ثم كان لهذه الأفعال علاقة بمقصدية الحجاج الذي يهدف إلى القضاء على الفتن ، واستقرار الأمن ، والإذعان التام لحكم بنى أمية .

٣. أفعال التعهد .

وهي أفعال يلزم المتعهد نفسه بإنجاز فعل معين ، ويتضح ذلك من قول الحجاج : " وإنى والله لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت " (٥١)

وردت أفعال التعهد في الخطبة تالية لأفعال القرارات ، أي أن القرارات السابقة تنجزها وتحققها هذه الفقرة التي بين أيدينا ، وسيطر على النسيج اللغوي في هذه الفقرة وسيلتان أسلوبيتان هما : التوكيد والقصر ، وكان لهما أهميتهما في إزالة الشك لدى المتلقي في إنجاز هذه الأفعال .

وبجانب قدرة التوكيد على إزالة الشك والإنكار يتآزر معه أسلوب القصر في أداء هذه المهمة ، خاصة أن هذا الأسلوب يتحقق عن طريق النفي والاستثناء . يقول عبد القاهر : " وأما الخبر بالنفي والإثبات فيكون لأمرينكره المخاطب ويشك فيه " (٥٢)

ومن ثم لا تقل هذه الأفعال أهمية عن سابقتها في الارتباط بنية الحجاج ، ومقاصده الظاهرة وغير الظاهرة في سياقهما الاجتماعي والثقافي على حد سواء .

٤. أفعال السلوك :

وهي تعبر عن رد فعل تجاه فعل ما ، وقد تحققت في نهاية الخطبة من خلال أفعال : السفك . النهب . الهدم . ونعاينها في قول الحجاج .

"واني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت بيته " . (٥٣)

مازال أسلوب الحجاج متلبساً بأساليب التوكيد المتعددة (إن . القسم . الاستثناء) ، ويتساق مع هذه الأساليب الأفعال الماضية - بارتباطها بتأكيد حدوث مدلول الفعل - التي وردت في الفقرة مشروطة بشرط التخلف ، فيكون رد الفعل إزاء هذا التخلف : سفك . نهب . هدم ، وهذه الأفعال لا تنفصم عن قصد الخطيب بأية حال من الأحوال .

٥ . أفعال الإيضاح

وهي ترتبط بتبرير وجهة نظر معينة ، أو الإفصاح عن رأى ، وتظهر هذه الأفعال في قول الحجاج : " ي أهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، ما يقع في بالشنان ، ولا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وجريت إلى الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين . أطال الله بقاءه . نشر كنانته ، فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي " . (٥٢)

هذه الأفعال الإيضاحية الواردة في الفقرة السابقة جاءت تبريراً لوجهة نظر أمير المؤمنين اختيار الحجاج واليا على العراق ، وقد رسمت هذه الفقرة بحركة أفعالها لوحة فنية أظهرت الحجاج حاكماً قوياً لا ينثني له عزم ولا تلين له قناة .

ولذلك عبرت هذه الأفعال . من خلال نسيجها اللغوي في هذه الفقرة وتلبسها بسياقها النفسي والاجتماعي . عن قصد مبدع النص فلا تنطوي العراق تحت لواء الدولة الأموية إلا من خلال حاكم قوى ، هو الحجاج .

ويعد هذا كله ، فقد اتضح أن تلك الأفعال الكلامية أبرزت المنطوق اللغوي ، وأنجزت حدثاً اجتماعياً في آن واحد . (٥٥) ولذا أسهمت إسهاماً فاعلاً في خدمة أغراض منتج النص ، وخدمت غايات تأثيرية من خلال تأثيرها في المخاطبين .

ثانياً : المقبولية

تعتمد المقبولية على التفاعل بين مقاصد المنتجين ، ورغبة المتلقين في المعرفة وصياغة مفاهيم مشتركة . (٥٦)

وإذا نظرنا إلى المتلقين ، وجدناهم نوعين :

الأول : المتلقي المعاصر للنص ، والثاني : متلق ليس معاصراً للنص ، ومن خلال معرفتنا بهذين النوعين ، ينقسم النص إلى نوعين أيضاً

النوع الأول : النص الشفاهى الموجه إلى المتلقي المعاصر له

النوع الثاني : النص المكتوب ، وهو مرتبط بالمتلقي غير المعاصر له .

والنص الشفاهى حقق مقصديته ومقبوليته زمن إلقائه ، وربما امتد حتى نهاية

ولاية قائله . .

أما النص المكتوب يظل يحقق مقصديته ومقبوليته على امتداد الزمن عبر عملية القراءة ؛ لأن " عملية القراءة إعادة بناء النص طبقاً لتصور القارئ . ومن ثم فإن النص كائن حي في حالة سكون يُبعث بالقراءة فيحيا من جديد ، وبأشكال جديدة ، ويصبح القارئ مؤلفاً ، كما كان المؤلف قارئاً " (٥٧)

وإذا وقفنا عند المتلقي المعاصر للنص ، لنتعرف مدى قبوله له ، واضعين في اعتبارنا " أن استراتيجيات التلقي التقليدية تتوقف عند مرحلة قبول النص ، وهناك استراتيجيات أخرى تفرضها طبيعة النوع : فقبول النص مرحلة تعقبها مرحلة التأويل وإدراك المفاهيم " (٥٨)

أما المرحلة التقليدية لقبول المتلقي النص فنراها تحققت قسراً ، فقد أذعن السواد الأعظم من العراقيين للدولة .

أما المقاصد الثقافية للنص ، فإنها مما لاشك فيه حققت قبولاً لدى المستمع ، فالحجاج " يفتتح الخطبة بأشعار تمتليء باللفظ الغريب حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم ، وقد زحرت بأسلوب تصويري قوى ، والحجاج يعد في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر ... فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته " (٥٩)

وإذا رجعنا إلى النوع الثاني من المتلقين غير المعاصرين للنص ، وجدنا المقبولية تتحقق لديهم عبر عملية القراءة ، فعملية القراءة إعادة إنتاج وبناء للنص . فالنص مشترك بين طرفين : منتج ومتلق ، والنص الجيد يظل معطاء عبر الزمن ، ويعطى جديداً مع كل قراءة ، ومن هنا يحقق درجة عالية من المقبولية .

فعندما نقرأ النص الذي بين أيدينا طبقاً لمعطيات البلاغة القديمة ، نراه

يتفاعل مع تلك المعطيات ، فيحقق قبولاً من خلال تلك القراءة .
وعندما نقرأه أيضاً قراءة أسلوبية ، يحقق آلية من التفاعل بأعرافه الثقافية ،
وانحرافات اللغوية ، ومن هنا ينجح النص في خلق مقبولية محسوسة لدى القارئ
الأسلوبي .

ويحقق النص أيضاً مقبولية عند قراءته قراءة نصية ، فوفاء النص بمعايير
النصية السبعة يثير لدى المتلقي متعة خاصة عندما يحرص منتج النص على تقديم
نصه مسبوکاً ومحبوکاً ، ومن ثم تتيح مرحلة التأويل وإدراك المفاهيم تفاعلاً بين
النص ومتلقيه وفقاً لعملية القراءة الواعية .

ومن خلال هذا الفهم لطبيعة النصوص يمنح النص قبولاً للمتلقي مع كل
قراءة جديدة ، وكل نظرية جديدة سواء كان هدفها دراسة الجملة في النص ، أم النظر
إلى النص كلاً متكاملأ .

٣. الإعلامية

يمثل مصطلح الإعلامية معياراً من معايير النصية السبعة ، ويستعمل " للدلالة
على مدى ما يجده مستقبلو النص في عرضه من جدة وعدم توقع " (٦٠) .
ولكل نص حظه من الإعلامية . فمهما يكن نصيب الشكل والمحتوى من التوقع ،
فإنه لا مندوحة عن وجود بعض الوقائع المتغيرة التي يتعذر التنبؤ بها بحذافيرها . ومن
المحتمل أن يؤدي ضعف الإعلامية بوجه خاص إلى الارتباك ، وإلى الملل ، بل إلى رفض
النص في بعض الأحيان " . (٦١) إن موضوع الإعلامية " مدى التوقع الذي تحظى به
وقائع النص المعروض في مقابل عدم التوقع أو المعلوم في مقابل المجهول " (٦٢) .

وتتسع فكرة الإعلامية عند د. حسام أحمد فرج ، ويربطها بثلاثة مفاهيم هي :

- ١ . يدور المفهوم الأول حول صفة الإعلامية بمعناها العام ، فأى نص يجب أن
يقدم خبراً ما ، بل إن الرغبة في الإخبار تمثل غرضاً أولياً لدى أي كاتب .
- ٢ . يشير المفهوم الثاني لمصطلح الإعلامية إلى الجدة في عرض المعلومات في
مواقف معينة ، وهذه الجدة يحددها المتلقي . بمعيار عدم التوقع .
- ٣ . ينطلق المفهوم الثالث للإعلامية من فكرة الدعاية لـ / ضد شخص ما ، أو
فكرة ، أو لذهب . (٦٣)

وننتقل من هذه التوطئة إلى تعرف الوسائل التي حققت للنص مناطق الدراسة كفاءة إعلامية عالية ، وأول ما نقف عليه من هذه العناصر عنصر الإخبار ، وهذا العنصر مرتبط بمقاصد الخطيب ، فهو يخبر جمهوره بمعرفته بأحوالهم الاجتماعية ، وطبائعهم النفسية ، ويخبرهم أيضاً بالنهج الذي سوف يتبعه في أثناء حكمه ، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم نحو الحاكم ودولة الخلافة .

ومن الوسائل التي تحقق للنص إعلامية معيار السبك ، ومعيار الحبك . الذي سوف نتحدث عنهما لاحقاً . فكلما قدم المبدع نصاً مسبوكاً أدى إلى تلاحم ظاهر النص ، وتحول إلى كتلة متماسكة الأجزاء ، و" هذا التوحد البنائي منبعه توحد نفسي ، واستقرار ذهني لدى المبدع ، لا يريد به فقط بناء نص متماسك ، بل يريد أيضاً إظهار ثقافته ورصانة أسلوبه للمتلقي ، وإظهار قدر من الصدق المرتبط بالإبداع ليكون معبرة إلى قارئه " . (٦٤)

وقد تحقق للخطبة تماسكها في عالمها الظاهري ، بجانب تحقق عنصر الحبك الذي يبرز القضية الكبرى للنص من خلال إقامة علاقات دلالية بين القضايا الصغرى في النص .

ومن أبرز الأمور التي وحدت النص دلاليا مجموعة الصور الكلية التي ترابطت فيها الصور البيانية الجزئية مع كلمات رسمت صوراً سمعية وبصرية ، وحركية ، كان قوامها الكلمات الدالة على الصوت واللون والحركة .

إن الترابط في ظاهر النص وعالمه يحقق درجة عالية من قبول النص لدى المتلقي ، بعكس إن قدم منتج النص نصاً مفككاً فاقد الترابط ، فإن درجة قبول النص بلا شك تنخفض لدى المتلقي ، ولذلك تتضح إعلامية النص من خلال تماسكه .

ومن العناصر التي حققت إعلامية للخطبة عنصر التناص . فقد تحاور الحجاج مع مجموعة كبيرة من النصوص التراثية ، وتعالقت تلك النصوص مع بنية النص ، واندمجت فيه ، فأضحت جزءاً لا يتجزأ من بنائه .

وقد تمثلت استفادة الحجاج من بنية الشعر في استغلاله خواصه المميزة من تكثيف وإيقاع ، فاعتمد على بعض الأبيات الشعرية لعرض بعض المعاني التي يرغب في إضاعتها ، وهو يدرك ما سوف يجلبه استخدام الشعر بقايفته ووزنه من حيوية لنصه ، ويدرك من

جانب آخر. أكثر اتساعاً. ذلك الوعي الثقافي الذي يربط بين العربي والشعر برباط أبدي ، فهو ديوان بطولتهم ، ومنبع فخرهم . (٦٥)

وضمن الحجاج خطبته آية من القرآن ليضفي على النص قدسية ومهابة ، وهذا النوع من التناسس وسيلة مهمة من وسائل الاتصال بين المبدع والمتلقي ، فالقرآن دستور الأمة ، وارتباط المسلم به وثيق .

وقد تناسس الحجاج مع بعض الأمثال ، والخطب التي سبقته ، ومن هنا كان للتناسس أهميته في نجاح النص ، وتحقيق المقبولية لدى المتلقي ، ودرجة النجاح مرتبطة بالإعلامية .

وهذه الوسائل التي تحققت في النص تتيح له عنصر الجودة ، فبجانب السبك والحبك والتناسس ، تتحقق الجودة من اختيار المحتوى ، والصور الموحية ، مما من شأنه أن يرتفع بالإعلامية إلى درجة كبيرة .

ويبقى عنصر مهم ، يحقق للنص كفاءته الإعلامية ، هو عدم التوقع وكسر المعتاد " فكلما كان هناك ابتعاد عن التوقع ، وكسر المعتاد المؤلف زادت الكفاءة الإعلامية ، وهي بذلك نسبة تختلف باختلاف المتلقي وعمليات استقباله النص " . (٦٦) مع الحذر كي لا تنوء قدرة المستقبلين على معالجة الموضوعات بالعبء إلى حد تعريض الاتصال للخطر . (٦٧)

ويظهر كسر المؤلف ، وعدم التوقع في الخطبة من خلال النسق غير اللغوي الذي مهد للخطبة / النسق اللغوي ، وقد دللنا الراوي على هذا النسق ، وصور لنا صورة الحجاج قبل الخطبة (معتم . ملثم . يتقلد سيفاً . يتنكب قوساً . يؤم المنبر . مكث ساعة لا يتكلم) وهذا نمط غير معروف ولا معتاد في الخطبة وكأن لهذا النمط دلالة السيميولوجية . كما أوضحنا من قبل .

وتحقق عنصر عدم التوقع أيضاً في كسر المؤلف في طريقة الخطاب . فخطب الولاية يمتاز أسلوبها بالرقّة واللين والتواضع ، كما هو واضح في خطبتي أبي بكر وعمر عندما توليا الخلافة ، لكن خطبة الحجاج مفعمة بتفخيم الذات ، وعلو نبرة الأنا ، يطفو على سطحها التهديد والوعيد ، وربما كان مبرراً لهذا ظروف العراق الاجتماعية والسياسية " معدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق "

ويتحقق كسر المألوف أيضاً من خلال عنصر المفارقة بين موقف أمير المؤمنين في الموقف الأول يقول الحجاج : " فوجدني أمراً عوداً ، وأصلبها مكسراً فرماكم بي " . (٦٨) .
ويقول في الموقف الثاني : " وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة " (٦٩)
إن أمير المؤمنين الذي رمى العراقيين بالحجاج ، يأمره ألا يمنعه العطايا ، وهذه مفارقة تخلق إثارة ذهنية للمتلقي من خلال التوقع وإحباط التوقع .
ومن هنا نرى الخروج على المألوف ، وكسر التوقع تأزر مع مجموعة العناصر السابقة في تحقيق كفاءة عالية ؛ لتقديم نص أكثر إعلامية وربما كان هذا السر في تردد صيت هذا النص في كل الكتب الأدبية وذووع صيته عبر الأزمنة المتلاحقة .

٤- التناس

التناس كان معروفا لدى النقاد العرب القدماء بمفاهيم مختلفة مثل التضمين والاقتراس والإحالة ، ولكن مفهوم التناس تتطور على أيدي النقاد الغربيين .
ومن المسلم به أنه " لم تنقطع ، علاقات النصوص الأدبية بعضها ببعض أبداً في أي وقت ، فهي تعيش حياة خاصة فيما بينها ، تسمح لها أن تتصارع . وتتصالح ، ويحيك بعضها لبعض المكائد ، وينصب الضخاخ . فهي عائلات لها أنساب وسلالات ، تنحدر من نصوص أمهات ، وآباء وأجداد ، ولا يرتبط ذلك - بالطبع - بلغة أو بثقافة معينة " (٧٠)
وبهذا التعالق النصي ، يكون التناس على حد قول جوليا كرسفيا : " كل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر " (٧١) ، أو هو نسيج جديد من استشهادات سابقة . (٧٢)
وعصارة من التفاعلات النصية التي تتم على المستويين الشكلي والدلالي . (٧٣)
ويحقق التناس للنص بعداً عالمياً ، حيث يصب فيه الثقافات والأفكار التي لا يستطيع مؤلفه أن يكون بعيداً عنها ، وهذا الأمر مرتبط بمفهوم الاتساعية النصية عند جيرار جنيت حيث يقول : " إن الاتساعية النصية هي بدهة بعد عالمي بدرجة مختلفة للأدب : ليس هناك عمل أدبي لا يستدعي - بدرجة مختلفة وحسب القارئ - بعض الأعمال الأخرى ، وبذلك تكون الأعمال كلها اتساعية نصية " . (٧٤)
وعلى حسب رأي جنيت السابق " ليس ثمة نص بمنجاة من الاتساعية النصية التي يستدعي فيه نص نصاً أو نصوصاً أخرى بدرجات متفاوتة " . (٧٥)

وعند دراسة أشكال التناص التي تعالقت معها خطبة الحجاج نجدها متنوعة ، ومتعددة ، فهي تجمع بين التناص القرآني ، والتناص الشعري ، والتناص النثري من مثل وخطبة ، ويتردد التناص في الخطبة بين النصوص السابقة عليها ، والنصوص المعاصرة لها .

"وتكاد تنحصر أشكال التناص على هذا النحو في خطين أساسين أولهما : يقوم على العفوية وعدم القصد ، إذ يتم التسرب من الغائب إلى الحاضر في غيبة الوعي ، أو يتم ارتداد النص الحاضر إلى الغائب في نفس الظرف الذهني لما يجعلنا في مواجهة تداخل . أما الآخر فيعتمد الوعي والقصد ؛ على معنى أن الصياغة في الخطاب الحاضر تشير على نحو من الأنحاء ... إلى نص آخر ، بل تكاد تحدده تحديدا كاملا يصل إلى درجة التنصيص " . (٧٦)

وعندما نعين أشكال التناص في خطبة الحجاج نجدها تعتمد الوعي والقصد ، فلم يتسرب نص واحد إلى الخطبة في غيبة وعي قائلها بأية حال من الأحوال . وهذا ما سنتبينه من خلال الصفحات الآتية .

ولنبداً بتناص الموضوع ، ونعني بالموضوع ما تحتوي عليه خطبة الولاية من حيث موضوعها العام . وخطبة الولاية سنّها أبو بكر رضي الله عنه ، ونهج الخلفاء الراشدون النهج نفسه ، وأصبحت سنة متبعة .

وتناص الموضوع عند الحجاج يحمل في طياته جانبين مختلفين ، فهو تناص تألف وتناص تخالف/ عكسي ، فالتخالف ظاهر مع خطب الخلفاء الراشدين ، وما كانت تحتوي عليه من رقة ولين في أسلوب الخطاب ، مع طلب العون من الرعية ، والإعانة عند الإحسان ، والتقويم عند الإساءة .

وتناص التألف نلتمسه في خطب أول خليفة أموي ، فقد خطب معاوية في أهل المدينة : " أما بعد ، فإنني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة ، ومشارية جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإنني خير لكم ولاية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له " . (٧٧)

تلك الخطبة لا تخلو من تهديد لأهل المدينة ، ولكنه تهديد يخلو من القسوة والشدّة ، وإن شئت فقل تهديد مغلف بشيء من الرحمة ، فالمدينة لها مكانتها ، وأهلها لهم خصوصيتهم . أما العراق فهي مختلفة عن المدينة - بلا شك - في نظر الحجاج ، فإن تألف مع معاوية في موضوع الخطبة ، فإن تهديده ووعيده كان أشد بأساً ، وأقوى وقعا ، و"أنا" معاوية لم تُعل على "أنا" الآخر علو "أنا" الحجاج التي بلغت الغاية القصوى .

أما التناص القرآني فهو " مادة ثرية بمجموعة من القيم والرموز الإنسانية التي يتكئ عليها المبدعون في إنتاج معانيهم " . (٧٨)

فنرى الحجاج يتناص مع الآية رقم ١١٢ من سورة النحل في قوله : " فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " . (٧٩)

ورد الحجاج الكاف بديلاً عن قوله تعالى { وضرب الله مثلاً } ثم أتى بنص الآية إلى آخرها ، وقبل أن نتعرف دلالة التناص وجمالياته يجب أن نتعرف قصة تلك القرية ، من خلال تفسير السعدي للآية يقول : " هذه القرية هي مكة المشرفة ، التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد و تحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد فيها قاتل أبيه وأخيه ، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنصرة العربية ، فحصل لها في مكة الأمن التام ، ما لم يحصل في سواها ، وكذلك الرزق الواسع . كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه ، يدعوهم إلى أكمل الأمور ، وينهاهم عن الأمور السيئة ، فكذبوه ، وكفروا بنعمة الله عليهم ، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه ، والبسهم لباس الجوع والخوف الذي هو ضد الرغد ، والخوف الذي ضد الأمن وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم ، وعدم شكرهم . (٨٠)

وامتد جحود هذه القرية (مكة) ، ليشمل أهل العراق المؤمر عليهم الحجاج على قاعدة "عموم اللفظ ولا خصوص السبب" فالقرية " إما محققة في الغابرين . وإما مقدرة أي جعلها الله مثلاً لأهل مكة خاصة ، أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ، ففعلوا ما فعلوا ، فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمه " . (٨١)

وإن كان التناص يمثل في ظاهره تناص التآلف ، فإنما باطنه ينبئ عن تناص عكسي ،

فالقريبة في الآية خالفت أمر الله تعالى فتولى الله عقابهم ، أما أهل العراق فهم في نظر الحجاج مخالفون أمر بني أمية ، فكان لزاماً على الحجاج أن يتوعددهم ويتهدهم ، ويتولى عقابهم . ويعذب الله أهل القرية بالجوع والخوف ، بينما يعذب الحجاج أهل العراق بالسيف والضرب واللحو والعصب والقرع .

والتناص هنا قائم على التصوير التشبيهي التمثيلي الذي يمتد في فضاء النص ، ليحتل مساحة معلوماتية واسعة . فالمشبه الضمير / كم لم يقف عند حد هذه الكلمة . بل يرتد إلى أهل العراق بوصفهم معدن الشقاق و مساوي الأخلاق ، وقد أوضاعوا في الفتن ، وغرقوا في الضلال ، التمسوا سبل الغي : إذن ، المشبه يسير في حركة صاعدة نحو البداية رابطاً أهل العراق بأهل الكوفة المهددة رؤوسهم بالقطاف في أول الخطبة . بينما نرى المشبه به بصفاته المتعددة يتمدد عبر حركة هابطة نحو النهاية . فتجمع هذه الصورة عناصر شتى قائمة على الحركة النامية المتطورة محققة للخطبة الاتساعية النصية على رأي جيرار جنيث.

ومن هنا خلق الحجاج لنفسه من خلال التناص القرآني مبرراً لحمل الشر بحمله ، و حذوه بنعله ، بوصف النص القرآني له خصوصيته ، فالحجاج لم يستدع نصاً غائباً ، بل هو حاضر ، و لم يستدع نصاً قديماً ، فهو جديد لم يخلق من كثرة الرد ، فالنص القرآني نص حاضر في النص الحجاجي / الآني

و التناص الشعري كان له نصيب وافر في خطبة الحجاج ، فهو دليل فصاحة ، و أمانة ثقافة ، وأول ما يلقانا في الخطبة من تناص شعري بيت سحيم بن وثيل الرياحي
أَنَا ابْنُ جَلَّا وَطَلَّاعُ النَّيَا مَتَى أَضْعُ الْعَمَامَةَ تَعْرِفُونِي (٨٢)

هذا البيت لا يحيى حياة واحدة ، بل أضحى في بنية التناص يحيى حياتين : حياة في نصه الأصلي / الغائب ، و حياة أخرى في النص الحاضر / الآني . فالتناص " لا يحيى فقط في النص الحاضر ، بل في تعالقه يضيف إلى سياق الغائب ، ما لم ينتبه له نقاده في زمنه ، وهو كامن ، لأن النص الغائب كالنطفة المخصبة لن تثمر في سياق جديد إلا إذا امتلكت من منبعها أسباب خصوبتها في بيئتها " . (٨٣)

وهذا التناص يرتد بالمتلقي عبر الزمن - على مبدأ الاتساعية النصية - ليستدعي النص الغائب بكل ما يحيط به من معلومات ومواقف وأحداث ، فيبحث عبر أفق التلقي

عن سياقه الخارجي ، فيجيبه الأصمعي مجلياً له هذا السياق فيقول : حدثنا رجل من بني رياح قال : جاء رجل إلى الأحوص والأبيرد وهما من ولد عتاب بن هرمي يطلب هناء ، فقالا : إن بلغت عنا سحيم بن وثيل بيتا وأتيتنا بجوابه ؟ قال نعم ، هاتياه . فأنشدها :

إِنْ بَدَأْتَنِي وَجَرَاءَ حَوْلِي لَنُوشِقُ عَلَى الْحُطَمِ الْحَرُونِ

فلما أنشده إياه أخذ عصاه وجعل يهدج في الوادي ويقول :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعِ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تُعْرِفُونِي (٨٤)

واستدعاء هذا البيت حقق تناسباً شديداً بين النصين الغائب والحاضر ، فسحيم حميري له مكانته ، وله قصة مشهورة في المعاقرة عندما أصابت أهل الكوفة مجاعة (٨٥) ، فالتناص مع شاعر له تلك المكانة يتأزرر مع استعلاء الحجاج ، والبيت أيضاً يتساق مع سياق الخطبة حيث ينتج حقولاً دلالية من شهرة وشجاعة وتجلد .

و لم يقف التناص عند هذا الحد ، فيتسع أكثر ليشمل القصيدة كلها بما تحويه من فخر وإقدام وشجاعة ، فالملتقى - بدون شك - يعرف القصيدة ، وربما يحفظها ، فيكون البيت محل التناص إشارة إلى ما يأتي من أبيات .

وَأَنْ مَكَانَنَا بَيْنَ حَمِيرِي مَكَانَ اللَّيْلِ مِنْ وَسَطِ الْعَرِينِ
وَإِنِّي لَا يَعُودُ إِلَيَّ قَرْنِي غَدَاةَ الْغَبِّ إِلَّا فِي قَرَيْنِ
بِذِي لَبْدٍ يَصُدُّ الرُّكْبُ عَنْهُ وَلَا تُؤْتِي فَرَسَتُهُ لِحَيْنِ الْخِ (٨٦)

و تتسع دائرة التناص الشعري فتمتص مجموعة من أبيات الرجز ، يقول الحجاج : " و إنني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق :

هَذَا أَوْ أَنَّ الشَّدَّ فَاشْتَدِّي زَيْمٌ قَدْ لَفَهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ
لَيْسَ بَرَاعِي أَبْلٍ وَلَا غَنَمٌ وَلَا بَجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمٍ
قَدْ لَفَهَا اللَّيْلُ بِعَصَلْبِي أَرُوعَ خَرَجٍ مِنَ الدَّوِي

مهاجر ليس بأعرابي

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقَهَا فَشَدُّوا وَجَدَّتْ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجَدُّوا
وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَعَرْدُ مِثْلَ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ

لا بد مما ليس منه بُدُّ

يأهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوي الأخلاق " . (٨٧)

البيتان الأولان لرشيد بن رميض العنزي ، قالهما في الحطم ، وهو شريح بن ضبيعة " وكان غزا اليمن في جموع جمعها من ابن قيس ، وأخذ على طريق مفازة ، فضل بهم دليلهم ، ثم هرب منهم ومات فرعان في أيديهم عطشا ، وهلك منهم ناس كثير بالعطش ، وجعل الحطم يسوق بأصحابه سوقاً عنيفاً حتى نجوا ووردوا الماء ، فقال رشيد ذلك الرجز " . (٨٨)

هذا أوان الشد فاشتدي زيم : مثل يضرب للرجل يؤمر بالجد في أمره ، والحطم : العسوف العنيف ، و البيت الثاني كناية عن عظم القدر .

والأبيات التي وردت بعد ذلك مجهولة القائل ، وهي تنبئ عن ذكاء صاحبها ، وكثرة أسفاره ، وتركه البدو إلى المدن مما يكسبه خبرة وحنكة ، فهو ابن الهيجاء ، قوي شجاع . إن التناص الشعري يقوم على تفكيك أجزاء من نص كلي / قصيدة أو مجموعة نصوص ، ليعيد بناءها في النص الحاضر لتكتسب حياة جديدة فيكتسب الحجاج تلك الصفات السالفة الذكر ، وذلك لينحرف الخطيب ببنية التناص في النص / الحاضر عن دلالتها القديمة ، فيعيد إنتاج الدلالة من خلال ارتباطها ببني لغوية مغايرة للبني الأصلية ، فتتولد ازدواجية دلالية ينتجها التلاقح النصي وإعادة البناء وبجانب هذا نرى التناص المعتمد على الرجز يحقق قيمة أخرى ، فالحجاج يتناص مع الرجز على وعي ، فالراجز يأتي بأوابد الألفاظ وغريبها ليثبت مهارته اللغوية ، وتمكنه من ناصية البيان . وكان الحجاج هو الآخر يتيه على سامعيه بهذه المقدرة ، وتلك المهارة فيضيف إلى صفاته السابقة صفة أخرى ، فتتعدد الخصال و السمات ، وتتضخم الذات

وتبقى للمثل قيمته التناصية من خلال الامتصاص الشعري له ، فالمثل " هذا أوان الشد فاشتدي زيم " ، أدى دوراً مهماً في النصين الغائب والحاضر ، فالحطم جد في أمره في النص الغائب ، والحجاج قرّر أن يحمل القوم على الجد في النص الحاضر .

ولا تختلف دلالة المثل الثاني أيضاً عن دلالة المثل الأول فقد ورد في نص شعري مختلف عن النص السابق ، و من هنا تكون دلالة المثل في نص الحجاج تأكيداً لدلالة المثل المشار إليه آنفاً . يقول الراجز :

قد شمريت عن ساقها فشدوا " وأصل المثل " قد شمريت عن ساقها فشمري " (٨٩) ، وهو يضرب في الحث على الاجتهاد في السعي .

وبعيداً عن الامتناسص الشعري للمثل ، يتناسص الحجاج مع المثل : " حذو النعل بالنعل " (٩٠) الذي يضرب للتسوية بين الشيئين - في قوله : "إني لا أحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله" فيلبس الحجاج المثل ثوباً جديداً في سياقه الحاضر ، فيسرى في جسده روح التهديد والوعيد . ويتناسص أيضاً مع المثل " فلان لا يقعقع له بالشنان " (٩١) أي لا يخدع ولا يروّع .

أما التناصص مع نصوص وردت في خطب سابقة على الحجاج أو معاصرة له ، فنجد لها أثراً في خطبته ، فتتناصص مع خطبة علي رضي الله عنه ، في ذم أهل البصرة يوم الجمل " كنتم جند المرأة ، و أتباع البهيمة رغا فأجبتم ، وعُقر فهر يتم ، أعلامكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، ودينكم نفاق ، و ماؤكم زعاق " . (٩٢) فأخذ الحجاج النص ، وعن طريق التحوير اللفظي حوله إلى " يأهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق " والمخالفة اللفظية هنا تتحول إلى موافقة لفظية مع قول معاوية للوليد بن جابر الطائي : " إنك لتهددني يا أخا طيء بأوباش العراق أهل النفاق ومعدن الشقاق " . (٩٣)

إن المخالفة اللفظية تعد معادلاً لاختلاف الأمويين مع علي رضي الله عنه والموافقة اللفظية مع نص معاوية فهي أمانة انتماء الحجاج إلى تلك الدولة ، وهذا النظام . وهناك خطبة امتصتها خطبة الحجاج ، فنمت أغصانها ، وفروعها فيها ، فأثمرت أنضج الثمار في النص الحجاجي .

هذه الخطبة هي خطبة عبيد الله بن زياد عندما ولي الكوفة يقول فيها : " أما بعد ، فوالله ما تقرن بي الصعبة ، ولا يقعقع لي بالشنان ، وإني لنكلّ لمن عداني ، سمّ لمن حاربنني أنصف القارة من رماها . يأهل البصرة إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة ، وأنا غاد إليها الغداة ، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريضة ووليه ، ولأخذن الأدنى بالأقصى ، حتى تستقيموا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق ، أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطئ الحصى ، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم " . (٩٤)

من الملاحظ أن خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه منثورة في خطبة الحجاج لفظاً ومعنى مثل :

الحجاج	عبيد الله
<ul style="list-style-type: none"> - ما يقعق لي بالشنان - إن أمير المؤمنين نثر كنانته ... فرماكم بي - فإياي الشفعاء والزرافات وقيلا وقال - أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل شغلاً في جسده - واني أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه وأنهبت ماله ، وهدمت منزله - أنا ابن جلا 	<ul style="list-style-type: none"> - لا يقعق لي بالشنان - إن أمير المؤمنين ولاني . - وإياكم والخلاف والإرجاف - لأخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا - فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه و عريفه ووليه - أنا ابن زياد

مع امتصاص النص المتناص للنص المتناص منه ، يبقى للنص الحجاجي حلاوة المنطق ، وروعة البيان ، وقوة التأثير ، وطول النفس ، مما يتبعه زيادة المبنى المتولدة عنها زيادة المعنى .

إن خطبة الحجاج تعالقت مع مجموعة كثيرة من النصوص بأنواعها المختلفة ، وطيوها المتعددة ، وتناسلت هذه النصوص داخل النص الحاضر فحولته نصاً من أروع النصوص الأدبية . حتى لينطبق عليه قول عبد الله الغدامي : " العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن البشري ، فهو لا يأتي من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ ، إنه إنتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي ، هو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه ، ومن طبع النص الأدبي أن يكون مخصباً ، ومنتجاً تماماً مثل كل كائن حي ، مثل الإنسان والشجرة " . (٩٥)

إن النصوص المتعددة تدفقت عبر جداول التراث فلاقت أرضاً حجاجية خصبة ، فاهتزت وريت ، وأنبتت نصاً عميق الدلالة ، شديد التأثير ، تمر عليه الحقب والأزمان فلا يعتريه تحويل ولا يصيبه تبديل .

٥- السبك :-

يعد السبك معيارا مهما في تحقيق الكفاءة النصية ، وهو يحافظ على تماسك النص ظاهريا . ووسائله متعددة ، تتمثل في : التكرار والتضام والتعريف والتنكير والإحالة والحذف وأدوات الربط . (٩٦)

وذكرها الليدادي ورقية حسن أن للسبك درجات ، وهي تتوقف على عدد الوسائل المستخدمة ، فكلما ازداد عدد الوسائل السابقة في نص ارتفعت درجة السبك فيه ، ومن ثم درجة النصية ، والعكس صحيح ، كما أن هذه الدرجة تتفاوت داخل النص الواحد ، فقد تزيد في جزء وتقل في آخر ، كما أنها قد تكون عالية داخل الفقرات ، وهابطة فيما بين هذه الفقرات أو العكس . (٩٧)

وإذا رحنا نرصد وسائل السبك في خطبة الحجاج ، وجدنا أبرزها التكرار والإحالة والربط ، واختفاء الوسائل الأخرى لا يؤثر كثيرا على تماسك النص ؛ إذا وضعنا في الاعتبار قصر الخطبة ، وتحقيق معايير النصية الأخرى - التي سبق ذكرها - في النص . ومن هنا نرى تآزر هذه المعايير مع وسائل السبك الثلاث يحقق للخطبة الكفاءة النصية .

ونعرض الوسائل الثلاث على النحو الآتي :

١- التكرار:-

من أظهر الوسائل التي يتحقق بها التماسك المعجمي على مستوى البنية السطحية للنص تكرار عنصر معجمي ما . (٩٨)

والتكرار يعني " إعادة ذكر لفظ أو عبارة أو جملة أو فقرة باللفظ نفسه أو بالترادف . وذلك لأغراض كثيرة أهمها تحقيق التماسك بين عناصر النص المتباعدة " . (٩٩) ويتجلى التكرار في الخطبة في خطين هما : التكرار المحض ، والموازاة .

أ- التكرار المحض

ويكون بإعادة العنصر المعجمي نفسه دون تغيير ، وهو أعلى درجات التكرار . (١٠٠) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن التكرار " من السمات المميزة للغة المنطوقة لا المكتوبة " . (١٠١) ، ولغة الخطبة زمن إلقائها لغة منطوقة . وعند معاينة التكرار في الخطبة نجد تكرارا على مستوى الجملة في لا بد مما ليس له بد . (١٠٢)

ويتباعد التكرار بعض الشيء ليربط مجموعة من الجمل من خلال التناص الشعري في الخطبة . فقد انتهى عجز البيت الأول بقول الراجز :

قد لفها الليل بسواق حطم

ويبدأ صدر البيت الثالث

قد لفها الليل بعصلي (١٠٣)

أما الألفاظ التي امتدت في فضاء النص ، وكان لها أثرها في تماسكه وترابطه ، فلفظة "إني" ، حيث تكررت ٦ مرات فوردت مفردة مرتين ، وجاءت مرتبطة بأسلوب القسم؛ مرات يقول الحجاج : "يا أهل الكوفة ، أما والله إني لا أحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني أرى أبصارا طامحة ، وأعناقا متطاولة ، ورءوسا قد أيعنت ، وإني لصاحبها " (١٠٤) ويقول في موضع آخر : " إني والله يا أهل العرق ، ومعدن الشقاق ، والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، وما يقعق لي بالشنان " (١٠٥)

ويقول قبل نهاية الخطبة : " وإني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت " (١٠٦) وينتهي الخطبة بقوله : " وإني أقسم بالله لأجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهب ماله ، وهدمت منزله " (١٠٧)

ويتكرر أسلوب النداء مرتين في الخطبة يفصل بينهما بعد مكاني على مستوى النص وهذا النداء موجه للمخاطب / المتلقي ، يقول الحجاج : " يا أهل الكوفة أما والله " ، وتتسع دائرة النداء لتكون أكثر تعميما فيوجه إلى أهل العراق ، وأهل الكوفة يمثلون جزءا في بنية النداء " وإني والله يا أهل العرق ، ومعدن الشقاق "

إن تكرار النداء هنا يمثل نوعا من الربط على المستوى الراسي . خاصة بعد الفصل بين طريفي التكرار بمجموعة من الأشعار كان لها وظيفتها الدلالية في الخطبة .

والتكرار الندائي يعد عنصرا بارزا في عملية الخطاب فـ " الهو / المتلقي / المخاطب ، جاء موازيا للمرسل / إني المكررة في فضاء النص .

مما يزيد من التماسك الناتج من تكرار بنية النداء خروجه عن حقيقته التي تعني طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة " (١٠٨) حيث تتحرك دلالة التهديد والوعيد إلى المتلقي لتعلو بالأنا المتضخمة لدى المرسل .

وتتكرر صيغة القسم في الخطبة ٦ مرات وردت ثلاثة أقسام بصيغة "والله"، وصيغة الثلاثة الأخرى "أما والله"، وهذا التكرار القسمي تباعد مكانيا في فضاء الخطبة، ومن هنا أحدث تماسكا نصيا عبر مساحة واسعة من المعلومات، وتلك الصيغة التكرارية تساوقت مع تكرار لفظة "أني" - حيث إنها وردت مصاحبة لها في بعض المواضع، ومفارقة في مواضع أخرى - في إبراز الأنا وتأكيد نبرة التهديد والوعيد.

ومن الألفاظ التي تكررت مرتين "أمير المؤمنين"، يقول الحجاج: إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نشر كنانته بين يديه فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا فرماكم بي". (١٠٩)

ويقول في نهاية الخطبة: "إن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطيائكم". (١١٠) يأتي هذا التكرار المتباعد مكانيا تعظيدا للتكرار السابق في التماسك السطحي للنص، ووجوده يحقق بجانب وظيفة السبك وظيفة أخرى مغايرة لوظيفة التكرار البلاغية السابقة، إن وجود هذا التكرار في النص يمثل وظيفته ضغط على الأنا المتعالية، فأنا الحجاج فوقها أنا أعلى منها، إنها "أنا" السلطة / أمير المؤمنين.

ب- الموازنة :

الموازاة تكرار للبنية النحوية مع اختلاف محتواها. (١١١) ولا تختص بشروط الصحة النحوية في الجملة، بل تبحث في كيفية وجود روابط من نوع خاص بين الجمل تتمثل في التشابه التركيبي المدعم بالتماثل الصوتي لنهايتها، وهذا التشابه بين مجموعة من التراكيب المتوازية يحقق نوعا من التوحد يشي بترابط النص". (١١٢)

وتنتج بنية الموازنة عنصر المغايرة، فهي تقاوم الثبات، على حد قول دي بوجراند ودرسلر: "إعادة البيئة مع ملئها بعناصر جديدة تشكل التوازي". (١١٣)

والخطبة إذا استثنينا منها التناص القرآني والتناص الشعري وجدناها تحقق عنصر التوازي، ومن هنا يكون هذا العنصر من أكثر العناصر الذي يحقق للنص ترابطه.

ويمكن الوقوف على فقرة من الخطبة نتبين منها أثر الموازنة في الترابط النصي يقول الحجاج: "إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نشر كنانة بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، وأضجعتهم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي، أما والله لألحونكم لحو العصا،

ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل " (١١٤) الموازة هنا - بلا شك - لها أثرها الواضح في تماسك الفقرة ، ولها أثرها الجمالي أيضا في خلق نوع من الموسيقى ذات الرنين المرتفع ، الذي يناسب نبرة التهديد والوعيد وتعالى الذات . لكن الحجاج نجح في كسر رقابة الإيقاع بالاعتماد على التنوع الموسيقي حتى يدفع الملل عن المتلقي ، فعدل عن السجع في نهاية الجمل ، وفي بعض الأحيان يجنح في نهاية الجمل إلى التوازي ونقضه ، فيراوح بين التوازي وشبه التوازي . وجاء التناص القرآني والشعري ، متخللا أجزاء الخطبة ، ليصبح مفاصل مهمة فيها ، ويؤدي دورا في كسر حدة الإيقاع .

وبنية الموازة في هذه الفقرة ، وفي الخطبة كلها اتكأت على الجمل القصيرة التي تسهم في سرعة الإيقاع ، فكانت بمثابة الطرقات القوية والسريعة التي تقع فوق رؤوس المخاطبين . وهذا يتناسب أشد التناسب مع السياق والموقف .

ولعلنا نلاحظ أن التكرار المنتظم للوحدات الصوتية المتعادلة في الوزن ليس سوى مظهر خارجي لمبدأ التعادل . إن التزاوجات المنتظمة لا تؤثر فحسب على السلسلة الصوتية ، بل تتعدى ذلك إلى المستوى الدلالي (١١٥)

ولذا ، لم تحجب تلك التماثلات الصوتية الدلالة ، بل ظهرت الأنا مرتفعة إلى أعلى مستوياتها ، وكانت دلالة التهديد والوعيد بما يتبعها من حقول دلالية - سيدة الموقف في كل جزء من أجزاء النص .

٢- الإحالة :

الإحالة تعد عنصرا مهما " فالنص ذو بداية ومجال وسط يطول ويقصر ، ونهاية ، وهي نقاط يمكن التوقف عند واحدة منها وفصلها عن غيرها ، ولكنها لا يمكن أن تفهم معزولة عنها ، فكل مكون من مكوناتها يمثل معلما ، أو نقطة تتقدم بها الأحداث إن كانت حدثا ، وتتعدد بها الذوات إن كانت ذاتا ، وهي يمكن العودة إليها عن طريق الإحالة ، وبالمقياس عليها يجري عالم الخطاب وبناء النص بالاستتباع " (١١٦)

وتنقسم الإحالة إلى إحالة خارجية وإحالة داخلية " فالإحالة على ما هو خارج اللغة تعني إحالة عنصر لغوي إحصالي على عنصر لغوي إشاري غير موجود في المقام الخارجي ، كأن يحيل ضمير المتكلم المفرد إلى ذات المتكلم " (١١٧)

وربما ننظر إلى العناصر الإشارية التي تتوافر في عالم النص الداخلي فتقسم إلى:

- عنصر إشاري يذكر آخر بعده أو قبله باعتماد عامل الإحالة .
- عنصر إشاري يذكر مرة أولى ، ثم يحال عليه بضمير أو بلفظه مرة ، أو أكثر في غضون النص ، فهو عامل ؛ إذ يحكم مكونا أو عددا من المكونات ؛ لأنه يفسرها" (١١٨)
- والإحالة إذا جمعت بين العنصر الإحالي ومفسره على مستوى الجملة تكون ذات مدى قريب ، إما إذا كانت بين الجمل المتصلة ، أو الجمل المتباعدة في فضاء النص تكون ذات مدى بعيد . (١١٩)

وإن كانت وسائل التماسك الإحالية تتفرع إلى الضمائر وأسماء الإشارة والموصولة ١٠٠٠ إلخ (١٢٠) ، فإن الإحالة الضميرية تمثل أبرز العناصر ، في الخطبة ، بينما تكاد تختفي الوسائل الأخرى .

ومن الملاحظ أن الضمائر الخاصة بالمرسل بلغت ٤٣ ضميرا ، بينما بلغت الضمائر الخاصة بالمخاطب ٢٢ ضميرا ، والضمائر المرتبطة بأمر المؤمنين ٨ ضمائر . والإحالة الضميرية في الخطبة اتسعت بمداها البعيد ، وجمعت بين عنصريها الخارجي والداخلي . فتمثلت الإحالة الخارجية في استخدام ضمير الفصل " أنا " في أول الخطبة حين استند الحجاج وعلى بيت سحيم .

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى اضْعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي (١٢١)

فضمير المتكلم إحالة إلى عنصر رئيس خارج النص ، هو المتكلم / الحجاج ، ومن ثم تؤدي الإحالة دورا مهما في سحب المتكلم إلى عالم النص ، وأسهم الضمير أيضا في خروج الأسلوب الخبري على مقتضى الظاهر إلى غرض الفخر ، وهذا يكون مناسباً مع ذات المتكلم ، والسياق الخارجي للنص .

أما الإحالة الداخلية فقد اتصفت بأنها ذات مدى بعيد ، حيث إنها امتدت في فضاء النص ، لتربط أجزاءه قاطبة . فقد مثل الضمير أنا في أول الخطبة مركز الضبط الذي تحيل إليه جميع الضمائر المرتبطة بالمتكلم / الحجاج . أما أهل الكوفة / العراق ، فقد ارتبطت بهم الضمائر الخاصة بالمخاطبين . وهذه الضمائر حققت وظيفة مهمة في تماسك النص .

ويمكن اختيار فقرة واحدة من الخطبة ؛ لنرى دور الإحالة الضميرية في تماسك

النص ، يقول الحجاج : " إني والله يأهل العراق ومعدن الشقاق و النفاق ، ومساوي الأخلاق ، ما يقعق لي بالشان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وجريت إلى الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، وأضجعتهم في مراقد الضلال ، وسننتم سنن الغي ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلطة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل " . (١٢٢)

ولعلنا نلاحظ مجموعة الضمائر الواردة في هذه الفقرة المرتبطة بالمتكلم تحيل إلى سابق هو " أنا ابن جلا" في أول الخطبة ، أما الضمائر الخاصة بالمخاطب فإنها لا تحيل إلى أهل العراق فحسب ، بل تحيل إلى سابق هو أهل الكوفة في بداية الخطبة . وتسير هذه الضمائر الخاصة بالمتكلم والمخاطب في خطين متوازيين إلى نهاية الخطبة ، مما يكفل لها تماسكاً شديداً ، ويحقق لها درجة عالية من الكفاءة ، " فالعنصر الرئيس قد يتعدد في النص الواحد . سواء المكتوب أم المنطوق . ومما يؤدي إلى سبك النص تعدد العناصر الإحالية المحلية إلى العنصر الإشاري الواحد " . (١٢٣)

وبجانب مهمة الربط والتماسك التي قامت بها الإحالة الضميرية ، فإنها تحقق وظيفة أخرى هي : الإيجاز والاختصار ، يقول ابن يعيش : " إنما أتى بالمضمرات كلها لضرب من الإيجاز واحترافاً من الإلباس ، فأما الإيجاز فظاهر : لأنك تستغني بالحرف الواحد عن الاسم بكماله فيكون ذلك الحرف كجزء من الاسم " . (١٢٤)

واتكاء الحجاج على ضمائر المتكلم والمخاطب مثل حضوراً واضحاً لطريفي الخطاب المرسل / المستقبل " فأعرف الضمائر المتكلم لأنه لا يوهمك غيره ، ثم المخاطب ، والمخاطب تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة وأضعفها تعريفاً كناية الغائب " . (١٢٥)

أما الضمائر التي تحيل إلى أمير المؤمنين ، فإنها تسهم أيضاً في عملية الترابط ، وهي بمثابة حلقة الاتصال بين المتكلم والمخاطب ، فأمر المؤمنين رمى المخاطبين بالحجاج في وسط الخطبة ، وأمره في نهايتها بإعطائهم أعطياتهم .

وإذا عدنا إلى الضمائر المرتبطة بالمتكلم الحجاج ، وجدناها تكررت ٤٣ مرة ، وأما الضمائر المرتبطة بالمخاطب ، فقد تكررت ٢٢ مرة ، أي بنسبة ١:٢ تقريباً ، وهذه النسبة

تعني تفوق ضمير المتكلم على ضمير المخاطب أي تفوق أنا المتكلم / الحجاج على أنا المخاطب / أهل العراق ، وهذا يفسر تضخم أنا المتكلم ، ونبرة التهديد والوعيد التي لا تني تتوقف لحظة واحدة في الخطبة ، وربما يبرز ذلك قول ابن يعيش السابق " والمخاطب تلو المتكلم في الحضور والمشاركة " . ومن هنا جعلت الإحالة الضميرية المخاطب تابعاً للمتكلم ، فضمير المتكلم يمثل عنصر ضغط على ضمير المخاطب .

ومما لا شك فيه أن انتشار الضمائر وكثرتها في النص لا تعني ثبات دلالتها ، بل هي دلالة متنوعة ومتغيرة مع كل تركيب جديد ترد فيه ، والإحالة أيضاً مناوئة للذهن المتلقي ، فهو يعمل ذهنه بين السابق واللاحق ، كل هذه الوظائف التي حققتها الإحالة - بجانب سبك النص ظاهرياً - تمتد إلى عالمه فتسهم في حبه أيضاً .

٣- الربط

الربط يشير إلى العلاقات التي بين مساحات المعلومات ، أو بين الأشياء التي في هذه المساحات . (١٢٦) ' وصور الربط عند دي بوجراندي هي : مطلق الجمع والتخيير والتفريع . (١٢٧)

وإن كان مطلق الجمع مرتبط بحرف الواو ، فإنه يكون وثيق الصلة بمبحث الوصل الذي تردد في كتب البلاغة كثيراً . أما التخيير ، فقد ورد مرتين ، فربط في إحداها بين أجزاء جملة واحدة ، وربط في الأخرى بين جملتين ، فلا داعي إلى الوقوف عليه لأن أثره لا يمتد إلى الربط بين مساحة كبيرة من الجمل . ونكتفي بالوقوف على مطلق الجمع .

مطلق الجمع أداته عند البلاغيين حرف الواو (١٢٨) ، والواو تقوم بمهمة العطف والإشراك بين المعطوفين ، ولذا " يعد العطف أو استعمال التعبيرات العطفية وسيلة واضحة الإشارة إلى الارتباطات الواقعة بين الحوادث والمواقف " . (١٢٩)

وبهذا المفهوم لمطلق الجمع يكون هو نفسه مبحث الوصل الذي هو ضد مبحث الفصل ، ومبحث الفصل والوصل من المباحث التي أولاهم البلاغيون اهتماماً بالغاً ، وعدوه من أسرار البلاغة يقول عبد القاهر : " اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص ، وإلا قوم

والعاطفة المسيطرة على المتكلم التهديد والوعيد ، فخطرات العقل متوثبة لا تهدأ ، والقلب دائم الخفقان ، فلا بد أن تكون الجمل موصولة ، لا انفصام لها ، فيكون للوصل قيمته الفنية في التعبير عن الدفقات الشعورية الخطرات العقلية .
وقد أدت الواو مهمة الربط أول الوصل في كل الخطبة باستثناء ثلاثة مواضع فقط ،
قد تم الفصل فيها :

الموضوع الأول : حينما بدأ الحجاج خطبته متناسلاً مع بيت سحيم " أنا ابن جلا " ثم ترك العاطف ، وبدأ الفقرة السابقة التي كانت موضع الاستشهاد ، ثم أنهى الفقرة ، وفصل بترك العطف ، وأنشد مجموعة من الرجز ، وبعد أن أنهى الأبيات ترك العاطف ، في قوله " إني والله ياهل العراق ... " .

والفصل الذي تحقق في الخطبة فصل ظاهري ، إنما هو في حقيقته رباط خفي بين أجزاء النص فعلى " الرغم من أن ترك العطف إنما كان لقوة الصلة المعنوية المحققة للربط بين الجمل ، فيكون كلا الأمرين عندئذ من قبيل الروابط ، غير أن الوصل رباط ظاهر ، والفصل ربط معنوي " . (١٣٥)

و تشارك الفاء والواو في فصل الجمل في قول الحجاج : " إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه - نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً فرماكم بي " . (١٣٦)

الفاء هنا بقدرتها على التعقيب دون تراخ ، ودلالتها على السرعة ، استطاع الحجاج أن يوظفها فنياً ، فأمر المؤمنين لم يتوان في اختيار الرجل المناسب لولاية العراق ، فمرارة الحجاج وصلابته دفعت عن أمير المؤمنين صعوبة الاختيار ، وأزالت من صدره أي شك أو تردد ، وهذا يتساند مع نبرة الأنا المتعالية في الخطبة .

وحرف الواو وحرف الفاء لم تقتصر مهمتهما على الفقرتين محل الشاهد فحسب ، بل تمتد مهمة الربط ، بجانب الوظائف الجمالية الأخرى ، في كل المواضع التي وردا فيها .

أما الكاف فصفتها النحوية حرف جر . أما وظيفتها الجمالية ؛ فإنها تربط بين طرفي التشبيه ؛ فتكون جزءاً من أجزاء الصورة الفنية .

وحروف التشبيه تدرس أحياناً في الإحالة ، ولا بأس أن ندرسها هنا حرف جريقوم

بمهمة الوصل أو الربط - وكما قلت من قبل - إنها وردت مرتين ، المرة الأولى ربطت بين أجزاء جملة واحدة هي "لا يغمز جانبي كتغماز التين" وهذا الربط لا يعول عليه لأنه لا يشمل مساحة كبيرة من النص .

أما الموضع الثاني فنعاينه في قول الحجاج : " فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، وأضعتم في مراقد الضلال ، وسننم سنن الغي ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " . (١٣٧)

الكاف هنا ربطت بين فقرتين ، كل فقرة تشمل مجموعة كبيرة من الجمل ، وقد تساوت الفاء مع الكاف في مهمة الربط . - وكما ذكرنا في مبحث التناس - أن الضمير " كم " ترابط مع مجموعة من الجمل عبر الرابط الفاء في " فإنكم " حيث إن الفاء ترتد إلى الخلف صوب مجموع الجمل السابقة عليها ، ربما تصل إلى مساحة أبعد لتربط أهل القرية ، بأهل العراق ، بما فيهم الكوفة .

من هنا يتضح أن الروابط حققت للنص تلاحماً شديداً سواء اعتمد الربط على الوصل أم على الفصل ، فهي رباط ظاهري لمجموعة كبيرة من الجمل ، ورباط خفي لمجموعة المدلولات الناتجة عن الجمل المترابطة ، ومن ثم يعمل الربط في ظاهر النص سبكاً ، ويعمل في عالمه حبكاً .

٥- الحبك

أطلقت عدة مسميات على الحبك ، منها : التماسك المعنوي . (١٣٨) ، والانسجام (١٣٩) والتقارن (١٤٠) ... الخ " وهو يدرس ما تتصف به مكونات عالم النص أي تشكيلة المفاهيم والعلاقات التي يستند إليها ظاهر النص من وثاقة صلة وسهولة تواصل فيما بينها . وفي وسعنا تعريف المفهوم بأنه تشكيلة من المعرفة - أي محتوى معرفي - يمكن استرجاعها ، أو استثارته بقدر ما بين الوحدة والاتساق في الذهن . أما العلاقات فهي الروابط القائمة بين المفاهيم والتي تتجلى معاً في عالم النص ، وتشتمل كل رابطة منها على تسمية للمفهوم الذي تتصل به " . (١٤١)

وبهذا المفهوم يعني الحبكة بظاهرة التماسك الدلالي، وهي " ظاهرة تشتمل على تفاعل القارئ مع النص، ولذلك ربما يقدم الكاتب مفاتيح لغوية ترشد القارئ إلى الفهم و التفسير، ولكن القراء هم الذين يملئون الفجوات من المعلومات المقدمة في النص من خلال العلاقات التي تصل بينها". (١٤٢)

فالعلاقات المفهومية هي التي تحدد النص من عدمه " فالنص ليس مجرد نظام لمجموعة من الجمل بطريقة عشوائية، بل هو مجموعة من العلاقات المفهومية يستخدمها القراء والكتاب في تعاملهم مع النص". (١٤٣)

و الحبكة بذلك هو الكيفية التي تمكن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النص طبقاً لبعض نماذج التوسيع النصي. (١٤٤)

ويمكن الوقوف على أبرز مظاهر الحبكة في خطبة الحجاج من خلال الصفحات الآتية :-

١- العلاقات الدلالية بين القضايا :

العلاقة بين الجمل " القضايا " ليست ذات طبيعة دلالية فحسب وهكذا لا يتعلق الأمر بتغيرات أوجه الربط بين وقائع النص فقط، بل بين الأفعال الكلامية أيضاً، وهذه الوظيفة المزدوجة تبينها الروابط ذاتها. (١٤٥)

وأبرز هذه العلاقات في الخطبة هي :

١- الاستقصاء "الإضافة"

ويقصد بها تصعيد المعنى، والوصول به إلى غايته، وهو الأمر الذي يقترب من المبالغة. (١٤٦) وهذه العلاقة تمثل سمة واضحة في خطبة الحجاج، فهو يصعد بمعنى، أو أكثر داخل الفقرة الواحدة حتى يصل به إلى قمة عالية.

ونختار فقرتين فقط من جملة النص لنتبين من خلالهما استقصاء المعنى عند الحجاج، يقول: " يا أهل الكوفة، أما والله إنني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإنني لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورءوساً أينعت، وحان قطافها". (١٤٧)

في هذه الفقرة نعاين تصعيد الحجاج معنى جزاء السيئة بسيئة مثلها، حيث تكرر المعنى من خلال ثلاث قضايا " جمل" صغرى، ثم استقصى معنى آخر، وهو محاولة التمرد والعصيان من قبل المخاطب فقد تردد المعنى عبر ثلاث قضايا أو جمل، وربط

المعنى الأول بالثاني عن طريق علاقة دلالية أخرى هي علاقة السبب بالنتيجة ، لكنه قدم النتيجة على السبب ، فحمله الشر بمثله نتيجة لمحاولة التمرد والعصيان .

و المثال الثاني ورد في نهاية الخطبة في قول الحجاج : " وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت بيته " . (١٤٨)

نرى في هذه الفقرة تآزر علاقة الاستقصاء في عالم النص ، مع وسائل السبك التي أنتجتها بنية السطح ، فقد بلغ الحجاج بدلالة التهديد غاية عظمى . وهذه العلاقات الدلالية لم تتوقف عند هذين المثالين فحسب ، بل امتدت فشملت معظم فقرات الخطبة مما يحقق لها تماسكاً دلالياً يحافظ على وحدتها .

٢- علاقة السبب بالنتيجة

حققت هذه العلاقة حضوراً واضحاً في الخطبة ، فأسهمت إسهاماً فعالاً في ترابطها الدلالي ، وتتعرف هذا الأثر في النماذج الآتية يقول الحجاج : " ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وجريت إلى الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نشر كنانته . بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي " . (١٤٩)

إن صفات الحجاج الواردة في هذه الفقرة سبب لنتيجة مؤداها اختياره لولاية العراق ، وهذا يتفق مع ما يشير إليه بيتي بامبرج Bette Bmbery إلى أن شروط السبك يحددها قصد الكاتب ومعرفة الجمهور . (١٥٠)

إن قصد الحجاج واضح في قوله لأهل العراق : " أما والله لتستيقمن على طريق الحق " ، إن إذعان العراقيين لبني أمية هدف الخطبة ، والجمهور معلمون لدى الحجاج وأمير المؤمنين فهم " معدن الشقاق والنفاق ، و مساوئ الأخلاق " ، ومن هنا اتسق السبب مع النتيجة ، فمرارة العود ، وصلابة المكسر ، تتناسب معهما النتيجة " فرماكم بي " .

ويقول بعد هذه الفقرة مباشرة : " لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، وأضجعتهم في مراقد الضلال ، وسننتم سنن الغي ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فأنكم لكاهل قرية كانت آمنه مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ، بما كانوا يصنعون " . (١٥١)

في هذه القطعة التي تقترب من نصف الخطبة تقريبا ، نرى الحجاج يربطها بسابقتها من خلال عرض سبب مرتبط بالنتيجة السابقة "فرماكم بي" ، والسبب هو " لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ". ومن هنا تكون النتيجة بين سببين ، ثم ربط هذا السبب بنتيجة أخرى هي : اللحو والقرع والعصب والضرب ، ثم حول هذه النتيجة إلى سبب وربط السبب بنتيجة أخرى ، هي تشابه أهل العراق مع أهل القرية التي كفرت بأنعم الله ، ثم ارتبط كفران النعمة كسبب بنتيجة هي : فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

ومما يزيد من تماسك هذه المساحة الواسعة من المعلومات اتكاؤها على علاقات دلالية أخرى مثل علاقة الاستقصاء "ألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة " ، وكذلك استنادها إلى علاقة التمثيل " حيث تقوم بالربط بين القضايا ، وتتضافر مع العلاقات الدلالية الأخرى في بناء الوصف داخل النص ، وتعبّر عنها الروابط اللفظية : الكاف - كأن - كما - مثل - مثلما - هكذا ". (١٥٢)

واتضحت علاقة التمثيل عن طريق حرف التشبيه الكاف في القضايا الصغرى " فأنكم لا كأهل قرية كانت آمنة الخ " ، وتلك العلاقة تعد وسيلة مهمة في إدخال التناص في بنية النص ، بما يحقق له كفاءة إعلامية عالية . (١٥٣)

وتسير الخطبة على هذا المنوال في ربط السبب بالنتيجة ، أو عكس ذلك ؛ فترتبط النتيجة بالسبب كما مر بنا من قبل في الفقرة الأولى عند الحديث عن علاقة الاستقصاء ، ولذا تكون هذه العلاقة لها أهميتها في ربط أكبر قدر ممكن من أجزاء الخطبة ربطا دلاليا .

٣- علاقة الأنا بالآخر:

هذه العلاقة لم ينص عليها النصيون ، لكن يتنجها فعل القراءة ؛ لأن قراءة النصوص وتأويلها تقتضي "تفاعلا حيويا من القارئ أنه هو الذي يجيد فعل القراءة وينشطها حتى يستخرج من النص ما لا يقوله النص ، وأن يعيد بجدية ملء الفضاءات الفارغة إن كانت ظاهرة ؛ أنه يتكفل بعملية بناء دلالات موازية للنص الأصلي ، فيسهّم بذلك في إثراء وإخصاب مضامين النصوص ، وتوسيع دائرة المعلومات التي تتضمنها ". (١٥٤)

والأنا في الخطبة هي الحجاج ، والآخر أهل العراق ، الحجاج حاكم والعراقيون

محكومون ، والعلاقة بينهم قائمة على التقابل ، ولم تقم على الانسجام ، والتقابل الدلالي ، الذي يمثل رباطا خفيا يتسرب في عالم النص ليشد وثاقه في كل متماسك .

وبجانب علاقة التقابل تنتج علاقة الأنا والآخر علاقة أخرى هي علاقة الفاعل بالتقابل ، فالحجاج فاعل في كل جزء من أجزاء الخطبة بينما العراقيون يمثلون القابل ، وترتبط تلك العلاقة الدلالية بوسيلة من وسائل السبك هي : الإحالة الضميرية ، فقد مثل ضمير المتكلم الأنا / الفاعل ، فكان المتكلم - في الغالب - فاعلا نحويا ودلاليا ، أما ضمير الخطاب / القابل - في كثير من الأحيان - فكان مفعولا نحويا وقابلا دلاليا ، وإن تحول الضمير في بعض المواضع فاعلا نحويا ، فإنه يبقى قابلا دلاليا أو ضعتم - أضجعتهم - سننتم " فقد تحول الحجاج إلى فاعل ليلصق بالتقابل التهم ، ومن ثم يمثل الفاعل / الحجاج وسيلة ضغط على القابل / أهل العراق ، فتعلو الأنا على الآخر ، وتبلغ المدى .

ومما يزيد من أثر علاقة الفاعل بالتقابل في ترابط النص ، وحدة الزمان والمكان ، فقد ربط الفاعل بالتقابل زمان محدد هو ساعة من نهار ، ومكان محمد هو المسجد الجامع بالكوفة .

ب - البنية الكبرى :

احتوت الخطبة على مجموعة من الأفعال المباشرة التي كونت بنياتها ، فإنه " يمارس في العربية العديد من الأفعال اللغوية المباشرة التي تتكون من بني كبرى من خلال الكتب الرسمية والخطب والروايات والقصص والدعوات " . (١٥٥)

وتبنى البنية الكبرى في أثناء عملية الفهم من خلال تطبيق عمليات ذهنية معينة على البنى الصغرى . وهذه العمليات يطلق عليها القواعد الكبرى .

وتكمن الوظيفة الدلالية للبنية الكبرى في بناء وحدات من سلاسل القضايا ، يمكن إن تفسر بوصفها تابعة بعضها لبعض من خلال القضية الأعم ، وتمكننا كذلك من إقامة علاقة بين سلسلة القضايا - بوصفها كلا - بسلسلة قضايا أخرى . (١٥٦)

ومن خلال هذه المفاهيم السابقة للبنية الكبرى نحاول البحث عن سلسلة من القضايا في الخطبة وربطها ببنياتها الكبرى .

إن القضايا الصغرى عبارة عن مجموعة من الجمل تكون قضية أعم ، ومن ثم يمكن تقسيم الخطبة إلى مجموعة من القضايا ترتبط كلها بالبنية الكبرى " وبذلك يمكن أن

يشكل تتابع كلي أو جزئي لعدد كبير من القضايا وحدة دلالية على مستوى أكثر عمومية". (١٥٧)

وأول قضية تواجهنا في الخطبة قضية الفخر والاعتداد بالنفس وارتفاع صوت الأنا ، وهذا واضح في بيت سحيم " أنا ابن جلا " ثم يأتي الحجاج بقضية أخرى هي عقاب المتمردين " إنني لا أحمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله " .

ويبرر الحجاج تهديده ووعيده لأهل العراق بعرض صفاتهم من شقاق ونفاق ومساوئ الأخلاق ، ومن هنا كان حقيق عليهم أن يرموا بالحجاج الأمر عودا ، والأصلب مكسرا ، وتكون هذه القضية عودا على بدء فترتبط صفات الحجاج هنا ، بصفاته في أول الخطبة " ابن جلا وطلاع الثنايا " .

وينشئ الحجاج قضية قوامها أيضا التهديد والوعيد / لحو - قرع - عصب - ضرب ، وترتد هذه القضية نحو الخلف لترتبط بقضية التهديد في أول الخطبة " إنني لأحمل الشر بحمله إلخ " .

ويبرر الحجاج عقابه لكل عاص أو متمرّد من خلال قضية أخرى ، عندما شبه العراقيين بأهل القرية التي كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف . تلك هي قضايا كبرى كونتها قضايا جمالية / صغرى ، ترابطت في وحدة دلالية وكلها ارتبطت ارتباطا شديدا بقضية الخطبة الكبرى ، وهدفها الأعظم وهو إذعان العراقيين لحكم بني أمية .

ومن هنا نرى الحجاج يودع في نهاية خطبته قضيتها الكبرى حيث يقول : " أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإنني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت بيته " . (١٥٨)

إن ارتباط القضايا المتعددة في النص ببنيته الكبرى حقق له تماسكا دلاليا ، ونأى به عن التفكك أو الترهل ، ومما يزيد من وحدة الخطبة وترابطها العضوي تساوق مقومات السبك في بنية السطح ، مع وسائل الحبكة في بنية العمق . من خلال الحركة الجدلية المستمرة بين أجزاء النص ، التي أنتجت الدلالة الكلية أو البنية الكبرى للنص .

ومما سبق يتضح أن خطبة الحجاج كانت أكثر وفاء بمعايير النصبة السبعة وقد كفل لها ذلك كفاءة نصبة عالية ، وربما كانت هذه الأسباب هي التي حققت لها مكانتها الأدبية المتفردة ، وارتقاءها إلى مصاف النصوص المتميزة التي يكتب لها البقاء ، فلا تموت بموت صاحبها .

النص

" حدث عبد الملك بن عمر الليثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبَّحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي : ألا أحصيه لكم ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حسر اللثام عن فيه ، ونهض ، فقال :
أَنَا ابْنُ جَلٍّ وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي
يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحْتَمِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ ، وَأَحْذُوهُ بِنَعْلِهِ ، وَأَجْزِيهِ بِمِثْلِهِ ، وَإِنِّي لَأَرَى
أَبْصَارًا طَامِحَةً ، وَأَعْنَاقًا مَتَطَاوِلَةً ، وَرُؤُوسًا قَدْ أَيْنَعَتْ وَحَانَ قِطَافُهَا ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا ، وَإِنِّي
لَأَنْظُرُ إِلَى الدِّمَاءِ تَرَقُّ رَقًّا بَيْنَ الْعَمَائِمِ وَاللِّحَى ،
هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدِّي زَيْمٌ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطِّمٌ
لَيْسَ بِرَاعِيِ إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٌ
قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصَلْبِي أَرْوَعُ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوِيِّ
مهاجر ليس بأعرابي

قَدْ شَمَرْتُ عَنْ سَاقِهَا فَشَدُّوا وَجَدَّتْ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجَدُّوا

وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّ عَرْدُ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ

لَا بَدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدُّ

إني والله يا أهل العراق ، ومعدن الشقاق والتفاق ، ومساوئ الأخلاق ، ما يُقعِّعَ لي بالشَّانَ بولا يُغمَرُ جانبي كَنَغْمَازِ الثَّيْنِ ، ولقد فُرِّرتَ عن ذُكَاءٍ ، وَفُتِّشْتَ عَنْ تَجْرِيبَةٍ ،

وَجَرَيْتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى ، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - نَشَرَ كِنَانَتَهُ ثُمَّ عَجَمَ عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرَهَا عَوْدًا ، وَأَصْلِبَهَا مَكْسِرًا ، فَرَمَاكُمْ بِي ؛ لِأَنْتُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ سُنْنَ الْغَيِّ ، أَمَّا وَاللَّهِ لِأَلْحَوْنَكُمْ لِحَوِّ الْعَصَا ، وَلَأَعْصِبَنَّكُمْ عَصَبُ السَّلْمَةِ ، وَلَأُضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ ؛ فَإِنَّكُمْ لِكَأَهْلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ أَمْنَةً مَطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرْتُمْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفَيْتَ ، وَلَا أَهْمُ إِلَّا أَمْضِيَتْ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا فَرِيْتِ ، فَإِيَّايَ وَهَذِهِ الْجَمَاعَاتُ ، وَقَالَ وَقِيلَ ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟ أَمَّا وَاللَّهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ أَوْ لَأَدْعَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ شُغْلًا فِي جَسَدِهِ ، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي بِإِعْطَائِكُمْ أَعْطِيَاتِكُمْ ، وَأَنْ أَوْجَهَكُمْ لِمَحَارِبَةٍ عَدُوَّكُمْ مَعَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ ، وَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا أَجِدُ رَجُلًا تَخْلَفُ بَعْدَ أَخْذِ عَطَائِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ ، وَأَنْتَهَبْتُ مَالَهُ ، وَهَدَمْتُ بَيْتَهُ ."

المفردات

ابن جلا : الواضح الأمر المنكشفه ، وقيل الصبح لأنه يجلو الظلمة ، وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم - الثنايا : جمع ثنية ، وهي الطريق في الجبل - العمامة : المغفر والبيضة - الشد : العدو - زيم : اسم فرس أو ناقة ، وقيل اسم للحرب - الحطم والحطمة : الراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض - العصلي : الشديد القوي - الأروع الذكي ، أو من يعجبك بشجاعته - الدو والدوية والدواية ويخفف : الفلاة المتسعة تسمع لها دويًا - المهاجر ، هجر الرجل : خرج من البدو إلى المدن - القعقة : تحريك الشيء اليابس مع صوت مثل السلاح وغيره - الشنان جمع شَن وهو القرية البالية - فر الدابة : فتح حنكها وفر أسنانها ، وفر عن الأمر : بحث عنه - الكنانة : جعبة السهام - عجم العود : عضه ليعرف صلابته من خوره - أوضع : أسرع في سيره - لحا العصا : قشرها - المرو : حجارة بيض براقه توري النار - السلمة : شجر كثير الشوك - غرائب الإبل : تضرب عند الهرب ، وعند الخلاط ، وعند الحوض أشد الضرب - أخلق : أقدر - فريت : قطعت - الزرافات : جمع زرافة بفتح الزاي وضمها : الجماعة من الناس - القول في الخير ، والقال والقالا في الشر - المهلب بن أبي صفرة : قائد الجيوش الذي حارب الخوارج الأزارقة وقل شوكتهم .

أهم نتائج البحث

- ١- خير وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي وسبل تحرره هو الانطلاق من مصدره اللغوي.
- ٢- المقاربة بين النقد والعلوم اللسانية.
- ٣- ترابط علوم اللغة العربية وعدم انفصالها .
- ٤- التوازن في التحليل بين معطيات الدرس النقدي ، ومعطيات الدرس اللغوي .
- ٥- تطبيق مناهج نحو النص على الخطاب النثري .
- ٦- تأزر بنية السطح مع بنية العمق في تحقيق التماسك النصي في ظاهر النص وعالمه .
- ٧- قدرة أدبنا العربي القديم على التفاعل مع النظريات النقدية واللسانية الحديثة .

الهوامش

- ١- ليندة قياس : لسانيات النص ، ٢٠، ط١ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩
- ٢- مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل : ٢٤١ ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٥
- ٣- ليندة قياس : لسانيات النص : ٢٠ ، ٢١
- ٤- سعيد بحيري : علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات : ١٢٨ ، مكتبة لبنان ناشرون ، الشركة العربية للنشر لو نجرمان ، ١٩٩٧ م
- ٥- روبرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء ، ترجمة : د تمام حسان ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ط١ : عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م
- ٦- راجع : سعيد بحيري : علم لغة النص : المفاهيم والاتجاهات ، ١٢٧
- ٧- أحمد عفيفي : نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ، ٨٤ ، زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠١
- ٨- روبرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء ، ١٠٤
- ٩- كلاوس برينكر : التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمنهج ، ترجمة : سعيد بحيري ، ١٧٥ ، ط١ ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ١٤٢٥ - ٢٠٠٥
- ١٠- إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد : مدخل إلى علم لغة النص : ٢٠٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩ م
- ١١- راجع : السابق : ٢٠٩ ، عزة شبل محمد : علم لغة النص النظرية والتطبيق ، ط١ ، ٧ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٧ م
- ١٢- عزة شبل محمد : علم لغة النص : ١
- ١٣- راجع : براون ويول : تحليل الخطاب : ترجمة : محمد لطفي الزليطني ، منير التريكي ، ٤٢ - ٤٤ ، نشر جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤١٨ - ١٩٩٧
- ١٤- راجع : عزة شبل محمد : علم لغة النص : ٨ - ١٠
- ١٥- حسام أحمد فرج : نظرية علم النص ، ٤٢ ، ط٢ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٩
- ١٦- السابق : ٢٤ ، ٢٥
- ١٧- راجع : الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٤ / ٥١٠ ، ط٤ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٨
- ١٨- شوقي ضيف : العصر الإسلامي ، ١٥٧ ، ط٢٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت

- ١٩- راجع: الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ١٧٠/٤
- ٢٠- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٣٠٠
- ٢١- والتر أونغ: الشفاهية والكتابية، ترجمة: حسن البنا عز الدين، ١٩٢، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤
- ٢٢- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٣٤
- ٢٣- راجع: شوقي ضيف: العصر الإسلامي: ٤٠٥ - ٤٠٨
- ٢٤- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٣٥
- ٢٥- السابق: ٤٠
- ٢٦- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهية: ٢٨٨/٢، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٢٧- كمال بشر: علم الأصوات: ٥٣١، ٥٥٣، مكتبة غريب، القاهرة، ٢٠٠٠.
- ٢٨- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٤٠
- ٢٩- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب: ٢٩١/٢
- ٣٠- السابق: ٢٨٩ / ٢
- ٣١- شوقي ضيف: العصر الإسلامي: ١٥٦
- ٣٢- راجع: إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد: مدخل إلى علم لغة النص: ١٥٢
- ٣٣- راجع: حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٤٦
- ٣٤- عزة شبل محمد: علم لغة النص: ٢٨
- ٣٥- أشرف عبد البديع عبد الكريم: الدرس النصي في كتب إعجاز القرآن: ١٥٨، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٨
- ٣٦- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٤٧
- ٣٧- راجع: ليندة قياس: لسانيات النص: ١٦٠
- ٣٨- راجع: حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٢٢
- ٣٩- عزة شبل محمد: علم لغة النص: ٣١
- ٤٠- راجع: حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٥٦
- ٤١- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب: ٢٩٠/٢

- ٤٢- السابق: ٢ / ٢٩٠
- ٤٣- نفسه: ٢ / ٢٨٩ ، ٢٩١
- ٤٤- نفسه: ٢ / ٢٩٠ ، ٢٩١
- ٤٥- راجع: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ٢ / ١١٥ - ١١٩
- ٤٦- شوقي الزهرة: جذور الأسلوبية من الزوايا إلى الدوائر دراسة فيلولوجية: ٤٦ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، د.ت
- ٤٧- راجع: ليندة قياس: لسانيات النص: ١٩٢ ، ١٩٣
- ٤٨- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب: ٢ / ٢٩١
- ٤٩- السابق: ٢ / ٢٩٠
- ٥٠- نفسه: ٢ / ٢٩٠
- ٥١- نفسه: ٢ / ٢٩٠
- ٥٢- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ٣٣ ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤ - ١٩٨٤
- ٥٣- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب: ٢ / ٢٩١
- ٥٤- السابق: ٢ / ٢٩٠
- ٥٥- راجع: حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٤٨
- ٥٦- السابق: ٥٢
- ٥٧- حسن حنفي: قراءة النص، ١١ ، ١٢ ، مجلة البلاغة المقارنة، (ألف) ، الهيرمنيوطيقا والتأويل ، القاهرة، ١٩٨٨
- ٥٨- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٦٣
- ٥٩- شوقي ضيف: العصر الإسلامي: ٢٠: ٤٢٠
- ٦٠- إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد: مدخل إلى علم لغة النص: ١٨٤
- ٦١- السابق: ٣٣
- ٦٢- نفسه: ٣٣
- ٦٣- راجع: حسام أحمد فرج: نظرية علم النص: ٦٦ - ٦٩
- ٦٤- السابق: ٧١

- ٦٥ - راجع : نفسه : ٧٤
- ٦٦ - عزة شبل محمد : علم لغة النص : ٦٨
- ٦٧ - إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد : مدخل إلى علم لغة النص : ٣٣
- ٦٨ - أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب : ٢٩٠/٢
- ٦٩ - السابق : ٢ / ٢٩١
- ٧٠ - حسن محمد حماد : تداخل النصوص في الرواية العربية ، ٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د.ت
- ٧١ - ليون سمغيل : التناسية ، ضمن كتاب آفاق التناسية المفهوم والمنظور ، ترجمة محمد خير البقاعي ، ٩٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : د.ت.
- ٧٢ - راجع : رولان بارت : نظرية النص ، ضمن كتاب آفاق التناسية ، ٤٢
- ٧٣ - راجع : جميل حمدواي : مناهج النقد الأدبي الحديث والمعاصر ، ٤٩ ، نادي القصيم الأدبي ، السعودية ، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩ .
- ٧٤ - جبرار جنيت : طروس الأدب على الأدب ، ضمن كتاب آفاق التناسية ، ١٤٦
- ٧٥ - حافظ المغربي : أشكال التناس و تحولات الخطاب الشعري المعاصر ، ٤٤ ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، نادي حائل الأدبي ، السعودية ، ٢٠١٠ م
- ٧٦ - محمد عبد المطلب : التناس عند عبد القاهر الجرجاني ، ٧٦ ، مجلة علامات في النقد ، ج٣ ، ص ١ ، النادي الأدبي بجدة ، ١٤١٢ - ١٩٩٢ .
- ٧٧ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٢٠٢/٣
- ٧٨ - محمد عبد المطلب : قراءات أسلوبية في شعرنا الحديث ، ٢٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ .
- ٧٩ - أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب : ٢٩٠/٢
- ٨٠ - السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تقديم : محمد زهري النجار ، ٨٨/٣ ، دار المدني ، جدة ، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ .
- ٨١ - أبو السعود : تفسير أبي السعود ، ٢٩٧/٣ ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .
- ٨٢ - أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ٢٨٨/٢ .
- ٨٣ - حافظ المغربي : أشكال التناس و تحولات الخطاب الشعري : ٧١

- ٨٤- الأصمعي : الأصمعيات ، تحقيق : احمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، ١٨، ١٧، طه، دار المعارف ، القاهرة .
- ٨٥- راجع : السابق ، هامش ١٧
- ٨٦- نفسه : ١٧، ١٨ .
- ٨٧- أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين ٢٨٩/٢ ، ٢٩٠
- ٨٨- أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين ، ١٥/٢٥٤ ، ٢٥٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢
- ٨٩- الميداني : مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم : ٢٧٧/٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٣١٦ - ١٩٦٦ .
- ٩٠- السابق : ٣٤٧/١
- ٩١- اللسان : قلع
- ٩٢- ابن أبي حديد : شرح نهج البلاغة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٢٤٣/١ ، ط ٢ ، دار إحياء الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥
- ٩٣- السابق : ١٣/٦
- ٩٤- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣٥٨/٥
- ٩٥- عبد الله الغدامي : ثقافة الأسئلة ... مقالات في النقد والنظرية ، ١١١ ، ط ١ ، النادي الأدبي بجدة ، ١٣١٢ - ١٩٩٢ .
- ٩٦- أحمد عفيفي : نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي : ١٠٥ .
- ٩٧- راجع : جميل عبد المجيد : البديع بين البلاغة و اللسانيات النصية ، ١٢٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .
- ٩٨- راجع : سعيد أحمد بيومي : لغة القانون في ضوء علم اللغة النص دراسة في التماسك النصي ، ١٦٢ ، ط ١ ، مكتبة الأدب ، القاهرة ، ١٤٣١ - ٢٠١٠ .
- ٩٩- صبحي إبراهيم الفقي : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ٢٠/٢ ، دار قباء ، القاهرة ، ١٤٢١ - ٢٠٠٠ .
- ١٠٠- راجع : سعيد أحمد بيومي : لغة القانون في ضوء علم اللغة النصي : ١٦٧

- ١٠١- محمد العبد : اللغة المكتوبة و اللغة المنطوية بحث في النظرية ، ١٤١ ، ط١ ، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٠ ،
- ١٠٢- أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ٢٨٩/٢
- ١٠٣- السابق ٢ : ٢٨٩
- ١٠٤- نفسه : ٢ : ٢٨٩
- ١٠٥- نفسه : ٢ : ٢٩٠
- ١٠٦- نفسه : ٢ : ٢٩٠
- ١٠٧- نفسه : ٢ : ٢٩١
- ١٠٨- سعيد أحمد بيومي : لغة القانون في ضوء علم اللغة النصي ، ٢٠١
- ١٠٩- أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب : ٢ : ٢٩٠
- ١١٠- السابق : ٢ : ٢٩١
- ١١١- سعيد أحمد بيومي : لغة القانون في ضوء علم لغة النص : ١٨٥
- ١١٢- حسام أحمد فرج : نظرية علم النص : ١٠١ .
- ١١٣- جميل عبد المجيد : البديع بين البلاغة العربية و اللسانيات النصية : ٢١
- ١١٤- أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ٢ : ٢٩٠ .
- ١١٥- راجع : صلاح فضل : بلاغة الخطاب و علم النص ، ١٣٥ ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .
- ١١٦- الأزهر الزناد : نسيج النص بحث فيما يكون الملفوظ نصا " ، ٤٣ ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ١٩٩٣ م .
- ١١٧- السابق : ١١٩
- ١١٦- سعيد بحيري : دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية و الدلالة ، ١٠٢ ، ط٢ ، مكتبة الأدب ، القاهرة ، ٢٠٠٥
- ١١٩- أحمد عفيفي : نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي : ١١٧
- ١٢٠- راجع : الأزهر الزناد : نسيج النص ، ١٢٣ ، ١٢٤
- ١٢١- أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ٢ : ٢٨٨
- ١٢٢- السابق : ٢ : ٢٩٠

- ١٢٣- محمد سالم أبو عفرة : السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمكتوب ، ٨٩ ، ط١ ، مكتبة الأدب ، القاهرة ، ١٤٣١ - ٢٠١٠
- ١٢٤- موفق الدين بن يعيش : شرح المفصل ، ٨٤/٣ ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، عالم الكتب ، بيروت ، د.ت.
- ١٢٥- السابق ٨٤/٣
- ١٢٦- راجع : روبرت دي بوجراند : النص والخطاب والإجراء : ٣٤٦
- ١٢٧- راجع السابق : ٣٤٦ ، ٣٤٧
- ١٢٨- راجع : عبد العزيز عتيق : علم المعاني ، ١٦١ ، النهضة العربية ، بيروت ، د.ت.
- ١٢٩- إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد : مدخل إلى علم لغة النص : ١٠٧
- ١٣٠- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ٢٢٢
- ١٣١- راجع : السابق : ٢٢٤
- ١٣٢- راجع : ضياء الدين بن الأثير : المثل الثائر ، تحقيق : أحمد الحوي ، بدوي طبانة ، ٢٢٧/٢ - ٢٣٣ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د.ت.
- ١٣٣- محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، ٢١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ١٣٤- أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ٢٨٩/٢
- ١٣٥- محمد إبراهيم شادي : مدخل القراءات القرآنية في الإعجاز البلاغي ، ٨٤ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٨٧
- ١٣٦- أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ٢٩٠/٢
- ١٣٧- السابق : ٢٩١/٢
- ١٣٨- عزة شبل محمد : علم لغة النص ، ١٨٤
- ١٣٩- ليندة قياس : لسانيات النص : ١٣٨
- ١٤٠- إلهام أبو غزالة ، علي خليل حمد : مدخل إلى علم لغة النص : ٢٦
- ١٤١- السابق : ٢٦ - ٢٧
- ١٤٢- السابق : ١٢٢
- ١٤٣- عزة شبل محمد : علم لغة النص ، ١٨٤

- ١٤٤ - حسام أحمد فرج : نظرية علم النص : ١٣٢
- ١٤٥ - فان دايك : علم النص مدخل متداخل لاتجاهات ، ترجمة : د سعيد بجيري ، ١٤٤ ، ط٢ ، دار القاهرة ، القاهرة ، ٢٠٠٥ م
- ١٤٦ - حسام أحمد فرج : نظرية علم النص : ١٣٨
- ١٤٧ - أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب : ٢٨٩/٢
- ١٤٨ - السابق : ٢٩٠/٢
- ١٤٩ - نفسه : ٢٩٠/٢
- ١٥٠ - حسام أحمد فرج : نظرية علم النص : ١٢٧
- ١٥١ - أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ٢٩٠/٢
- ١٥٢ - عزة شبل محمد : علم لغة النص : ٢١٤
- ١٥٣ - السابق : ٢١٤
- ١٥٤ - إدريس بلميح : القراءة التفاعلية دراسات لنصوص شعرية حديثة ، ١٨٧، ط١ ، دار تويقال ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٠
- ١٥٥ - علي محمود حجي الصراف : في البرجماتية - الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ، ١١٨ ، ط١ ، مكتبة الأدب ، القاهرة ، ١٤٣١ - ٢٠١٠
- ١٥٦ - فان دايك : علم لغة النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ١٥١
- ١٥٧ - السابق : ٧٧ ، ٧٨
- ١٥٨ - أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ٢٩١/٢